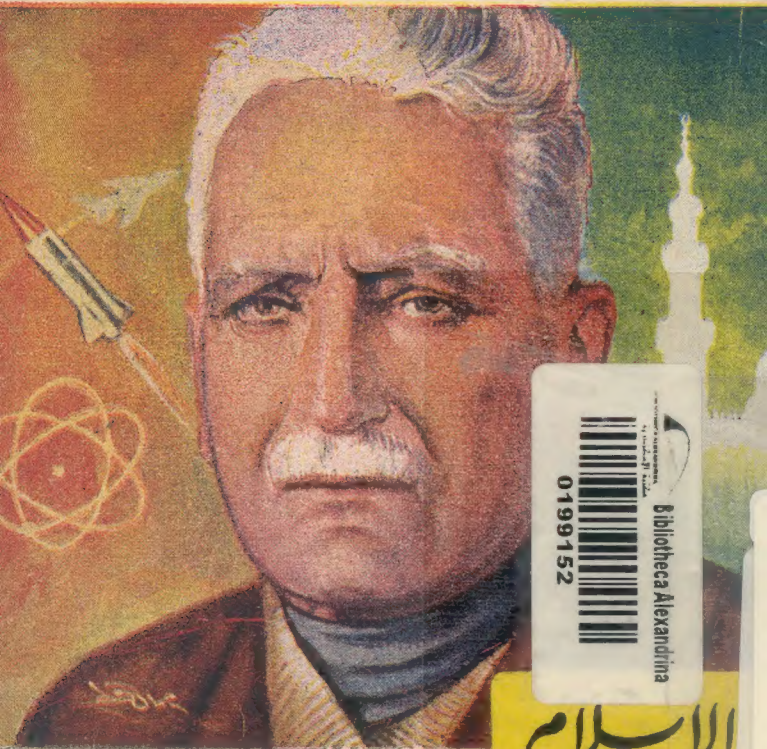


كتاب المصداق



0199152



Bibliotheca Alexandrina

الإسلام
القرن العشرين

عباس محمود العقاد

الثمان ١٠ قروش

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ١٠٨ - رمضان ١٣٧٩ - مارس ١٩٦٠

No. 108 — March 1960

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكتبات

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) اقليم مصر والسودان
١٠٠ قرش صاغ - اقليم سوريا ولبنان ١٢٥٠ قرشا
سوريا او لبنانيا - السعودية والعراق والاردن وليبيا
واليمن وغزة ١٣٠ قرشا صاغ - في الامريكتين ٥١/٢
دولارات - في سائر انحاء العالم ١٧٠ قرشا صاغ

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الإسلام في القرن العشرين

حاضرته ومستقبله

بسم

عباس محمد العتاه

مقرن الطبع محفوظة لدار الهداية

مقدمة

كان التقليد التاريخي في القرن السادس للميلاد ان تتقاسم العالم المعمور دولتان كبيرتان ، كلتاهما حرب للأخرى تنافسها ولا تأمنها ولا تهدأ عن حربها فترة من الزمن الا ريثما تستعد لمهاودة انكرة بقوة من الجند والسلاح اعظم من القوة التي جردتها عليها في حروبها الاولى

وكانت الدولتان المتنافستان في ذلك القرن دولة المشرق وهى دولة الاكاسرة ، ودولة المغرب وهى دولة القياصرة : فارس وبيزنطة ، ولا ثالثة لهما في العالم المعمور بين القارات الثلاث

جهدت كل من هاتين الدولتين الا تدع بقعة من البقاع المعمورة في القارات الثلاث بعيدة من سلطانها او قادرة على عسيانها

وكانت بينهما صحراء جرداء تحفل الدولتان بما حولها ولا تكثران لما يجرى في داخلها ، وامتد سلطان كل منهما الى الجانب الذى يليه فاتخذت فيه اتباعا يطيعونها ويحتمون بها ويلوذون بجوارها : فارس تسيطر على الحيرة واليمن ، وبيزنطة تسيطر على ارض غسان والبتراء وتهم ان تنصب لها اميرا على الحجاز يدين لها بالولاء ويحرس لها طريق الشام من اوله في الجزيرة العربية . ثم لا يعينها الامر عناية جد تنتهى فيه الى عمل فاصل تجاوز به التردد والشروع ، فليس الامر من الخطر عندها بحيث تفرغ منه على قرار

أما الخطر الذى فرغت له كلتا الدولتين فهو الخطر من احدهما على الاخرى ، والخطر من قبل النهرين فى العراق ومن قبل النهر الكبير فى وادى النيل . فلم تكن بقعة من هذه البقاع قد خلت طويلاً من جنود الدولتين منتصرين أو منهزمين ، ولم تزل الحرب بينهما سجلاً فى هذه الاودية وما جاورها ، ولم تزل كل منهما على امان من قبل الجزيرة الجرداء

نعم كان جيش من الفرس قد انهزم فى وقعة ذى قار على طرف من اطراف تلك الجزيرة ، ولكنها هزيمة حرس فى ولاية كما تخيلوها وليست هزيمة دولة تنازل قرناً لها من دولة اخرى جديرة بالخوف منها وحقق الهمم للتغلب عليها ، ومثلها فى عصورنا الحديثة كمثل الهزائم التى اصيبت بها الدولة البريطانية يوم كانت تدعى سيدة البحار أو يوم كان القائلون منها يقولون ان الشمس لا تغيب عن املاكها : هزائم تارة فى حدود الافغان أو عند اعالي النيل أو على طرف القارة السوداء فى الجنوب ، ولكنها تنهزم فيها وتبقى بعدها سيدة البحار أو غالبية على كرة الارض بين مشارقها ومغاربها

وكذلك كانت فارس بعد وقعة ذى قار ، فلم تتبع هزيمتها بحذر أو احتراس من تلك الجهة ، وظلت على عهدها من الحذر حيث تخشى الخطر ، فلا ترفع عينها عن بيزنطة واتباعها فى اودية الانهار أو بين ارجاء الهلال الخصيب ، ولا تحسب هى ولا صاحبها بيزنطة أن ثمة خطراً عليهما قط متوقعاً من جهة الجنوب

فلما جاء كسرى رسول من قبل هذا الجنوب وسأل عن شأن هذا الرسول ف قيل انه نبي فى العرب يدعو الى دينه . . . ضحك غاضباً أو غضب ضاحكاً وامر من يذهب الى ذلك النبي الجسور فيأتيه به حياً أو ميتاً . . ليلقى جزاءه على هذه الجسارة التى اجتراً بها على الشاهنشاه ملك الملوك

ولما تسامع القوم في الجزيرة العربية ان ذلك النبي يهزم ان يحارب القيصر في عقر داره سخروا وقالوا فيما بينهم عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية

لا بل قيل ذلك ، أو شبيه ذلك ، بعد ثلاثة عشر قرنا من القرن السادس الذي استعظموا فيه ما استعظموا من جراحة النبي العربي على عروش الاكاسرة والقياضرة ، فكان من المؤرخين المحدثين من كتب تاريخ الوقائع التي دارت بين اتباع ذلك النبي وبين جبابرة الفرس والروم ، ومن كتب في تاريخه هزيمة أولئك الجبابرة امام أولئك الاتباع ، ولكنه حين روى النبأ عن رسل النبي الى كسرى وقيصر رواه وهو يتعجب ويقول شبيهها لما قيل يومئذ قبل النصر والهزيمة : عساه يحسبها غزوة من غزوات البادية ، أو عساه قد زهاه النصر في مكة والمدينة فلم يدر ما المدائن وما القسطنطينية وراء الرمال والبحار !



قوة غالبة

وقوة صاعدة

قوة غالبية !

ان اعجب العجائب لما ينقضى على وقوعه مئات السنين ثم يتعاضم من يرويه حتى ليوشك أن يرتاب فيه

وكان ماجرى للدولتين - الفرس والروم - يومئذ اعجب العجائب في تواريخ الدول من قديم وحديث . فقد هزمت الدولتان معا في بضع سنوات ، ولم يأت الخطر عليهما من مكان تتوقعان خطره احدهما او كلاهما ، بل جاء من المكان الذي هان شأنه حتى لم يحسب له حساب

جاءت القوة التي هزمت الدولتين في وقت واحد من وراء الرمال أو قل من وراء المجهول أو من وراء الغيب ، ولا تعدو الحق فيما نقول

قوة غالبية لم تصمد لها قوة

قوة نجمت من حيث لا مخافة ولا مظنة ، فما هي تلك القوة ؟ وليست هي قوة دولة ولا قوة سلاح .. !

قيل فيما قيل انها خشونة البادية غلبت ترف الحضارة ونعمة الرخاء ، ولكن الدولتين اللتين انهزمتا معا قد كانتا تحكمان الملايين ممن لا يعرفون من العيش غير خشونته وشظفه ، وكانت فارس تحكم من حولها قبائل لم تعرف غير الجبال والقتال ، وكانت بيزنطة تحكم على تخومها أشباه تلك القبائل في خشونتها وقوة مراسها ، وظلت تحكمها وتهزمها كلما اغارت عليها من غربها أو شمالها ، بعد أن تلاحقت هزائمها في وقائعها مع أبناء

انبادية العربية ، وسلمت بالهزيمة بعد الهزيمة تسليم الخيبة والاضطرار

وقيل فيما قيل انه احتقار العرب للعجم ، وكل الناس عجم عند من ينطقون بالضاد

ولكنه سلاح كان ينبغي أن يصدق من الجانبين ، وان يغلب به العجم في بعض ميادينهم ان لم يغلبوا به في الميادين كافة حيثما التقى الخصمان المتساويان في ذلك السلاح ، بل لعل العجم كانوا اشد احتقارا للعربي في تلك الحقبة على التخصيص ، وقد حدث في احدى وقعات العراق أن زعيما عربيا ممن يلوذون بدولة فارس عرض على مهران قائد الفرس أن يتولى عنه حرب خالد بن الوليد لان العرب أعلم بقتال العرب ، فغضب جنود مهران لانهم سمعوه يقول لذلك الزعيم العربى : « صدقت . لانتم أعلم بقتال العرب وانتم مثلنا في قتال العجم » وثاروا به يستعظمون ان يقول « لذلك الكلب » ما قال ، ولم يرضوا عن هذه المجاملة لمن يريد نصره حتى قال لهم : « دعونى . فانى لم ارد الا ما هو خير لكم وشر لهم . فان كانت لهم على خالد فهى لكم ، وان كانت الاخرى لم يبلغكم اعداؤكم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن اقوياء »

الا ان هذا « الاحتقار » سلاح موفور في المعسكرين ، فان كان للعرب نصيب كبير منه فما كان عند العجم منه فهو نصيب غير صغير

على ان العرب الذين حاربوا الفرس والروم وانتصروا عليهم لم يكونوا جميعا من أبناء البادية ولا من الناشئين على الشظف والشدّة ، بل كان منهم أبناء نعمة وثناء ، وكان قائدهم الاكبر - خالد بن الوليد الذى قال الزعيم العربى لقائد الفرس مهران انه أعلم بقتاله - مخزوميا من أغنى السروات فى بنى مخزوم ذوى الجاه العريض والثناء المستفيض ، اذ كان جده - كما

ذكرنا في سيرته - المغيرة بن عبد الله الذي كان الرجل من بنى مخزوم يؤثر أن ينسب اليه فيسمى المغيرة تشرفا بالانتساب الى الفرع الذي أناف على الاصول ، وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد لانه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى، وكان عمه هشام قائد بنى مخزوم في حرب الفجار، وبوفاته أرخت قريش كما توضح بالاحداث العظام ، ولم تقم سوقا بمكة ثلاثا لحزنها عليه ، وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب في زمانه ، له بيت للضيافة يأوى اليه من شاء بغير استئذان ، وكان عمه أبو حذيفة أحد الاربعة الذين اخذوا بأطراف الرداء وحملوا فيه الحجر الاسود الى موضعه من الكعبة كما أشار النبي عليه السلام قبل الدعوة الاسلامية . أما الذي فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من اعمامه ، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء في بعض الروايات ، فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم الى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر الى مكانه ، فارتضوا مشورته وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل اهلالها على العالم بسنين . ولقب أبو أمية زاد الراكب لانه كان يكفي أصحابه في السفر مؤنثهم فلا يتزودون بزاد . . . ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضيف الى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها في كل مجتمع انساني وليس شأنها بالقليل في حياة خالد على التخصيص . فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الاقطاب بين رجالها مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية ، وبقيت لها هذه الشهرة الى ما بعد قيام الدولة العباسية ، اذ كان يقال لابی العباس السفاح : « أن المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين رجحانة الرياحين . . . »

فاذا كان المقصود بتurf الروم والفرس ترف الطبقة التي يخرج منها القادة والسادة فليس في قادتهم من احاطت به نعمة الشراء كما احاطت بقائد المسلمين الاكبر في حربهم للدولتين ، وهو الذي سماه صاحب الدعوة الاسلامية بسيف الاسلام

ولا ننسى أن الجيوش الاسلامية لم تصل الى ميادين العراق وفلسطين حتى كانت قد انتصرت على جيوش عربية من البدو والحضر قد نشأت مثل نشأتها وتدرت على القتال مثل دربتها وعرفت من الترف والخشونة مثل ما عرفت في بداوتها وحضارتها

ولا ننسى أن الظاهرة قد تكررت حيث لا عرب ولا روم ، وحيث كان الفرس في صفوف المنتصرين مع أمراء الاسلام . ففي القرن الثاني عشر للميلاد كان السلطان محمد غوري الافغانى يحارب قبائل « راجبوت » الهندية التي اشتهرت بالشجاعة والفروسية في العالم القديم من أقصى الديار الاسيوية الى اقصاها ، وكان على رأسهم قائدهم « برتوى » الذي قيل عنه انه لم يعرف الهزيمة قط في منازلة قرين ، فانتصر الجيش الافغانى بمن فيه من الافغانيين والأتراك والفرس على جيوش الراجبوت بعد حرب زبون كان النصر فيها سجلا بين الفريقين ، واوشك الامير الغورى ان يقع في احدى معاركها اسيرا مثخنا بالجراح في قبضة عدوه العنيد

وتكررت الظاهرة في المغرب حيث كان المنهزمون من قبائل البربر التي لم تعرف في تاريخها القديم غير الخشونة والقتال ، وكان تكرارها في مواطن شتى دليلا على أن القوة التي انتصر بها دعاة الاسلام لم تنبعث فيهم من خشونة البادية العربية ولا من هوان شأن العجم على العرب ، ولا حاجة الى قول قائل انها لم تنبعث من بأس الملك ولا من عدة السلاح

فلا مناص اذن من الرجوع بها الى السبب الذي اتفق عليه

المؤرخون او كادوا بعد التعلل لها بجميع الاسباب
لا مناص اذن من الرجوع بها الى العقيدة التى حفزت اولئك
المجاهدين على اختلاف الاقوام والازمان

غير أن الرجوع بها الى العقيدة لا يختم المطاف ولا يغنى عن
مرية فى هذه العقيدة تمتاز بها بين العقائد الكثيرة التى سبقتها
او لحقت بها ولم تنبعث منها قوة كهذه القوة ولا ظاهرة كهذه
الظاهرة بعد تجريدها من العوامل الاخرى

فما كانت جيوش الروم ولا جيوش الفرس خلوا من عقيدة
يؤمنون بها ويقبلون على الموت فى سبيلها ، وما كانت قبائل
الهند او آسيا الوسطى تجهل الدين او تهمله فى معيشتها اليومية
فضلا عن المراسم التى تصحب المتدين من مولده ولا تفارقه
مدى الحياة

انقال انها دفعة الدين الجديد ميزت عقيدة الاسلام على سائر
العقائد فى ذلك التنارع بين الدول والاديان ؟

ان دفعة الدين الجديد ولاشك سبب لا يهمل فى هذا المقام ،
وقد يسبق الى خاطر لتفسير قوة الدعوة فى القرن السابع
للميلاد وفى القرن الثانى عشر يوم كان القائمون بالدعوة فى آسيا
الوسطى اقواما من الافغان والترك دخلوا حديثا فى الدين

لكن كم من عقيدة جديدة صنعت مثل هذا الصنيع ؟ وكم
ظاهرة كهذه الظاهرة تكررت فى تواريخ الدول والاديان ؟



وقوة صامدة !

ان العقيدة الاسلامية لم تكن قوة غالبة وحسب في ابان النشأة والظهور ، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين ، ولا بد من تفسير لهذه القوة الصامدة كما لا بد من تفسير لتلك القوة الغالبة . فان القوة التي تصمد كالقوة التي تغلب في حاجتهما الى التفسير ، او لعل القوة التي تصمد اولى بالتفسير من القوة الغالبة ، لانها تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة في معترك الصدام والصراع

وصمود القوة الاسلامية في احوال الضعف عجيب كانتصارها في احوال الشدة والسطوة ، ولا سيما الصمود بعد اكثر من عشرة قرون

ولقد تداولت الدول بقاع الارض من القرن السابع للميلاد الى العشرين : قامت دول اسلامية ثم انهارت امام المنافسين من ابناء دينها او ابناء الاديان الاخرى ، وحدث في فترة من الزمن خروج المسلمين من اوربا الغربية ودخولهم الى اوربا الشرقية ، ودالت دولة دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة وقامت دولة الاستانة او اسلامبول ، ثم ظلت هذه الدولة وحدها كفؤا للدول الاوربية مجتمعات او متفرقات حتى تداعت اركانها وتصدع بنيانها وبقيت قائمة لاختلاف الطامعين في ميراثها على تقسيمها ، وتلاحقت الضربات على البلاد الاسلامية بين هزيمة واضطهاد وتمزيق وتفريق حتى تمكن منها

المستعمرون فلم تبق منها واحدة تنعم بقسط من حرية الحكم وسيادة الاستقلال ، ومن كان منها مستقلا كالدولة العثمانية او الدولة الايرانية او الدولة الحسينية بالمغرب الاقصى كان افتيات المستعمرين على حقوقها اشد واقسى من افتياتهم على البلاد التى فقدت حريتها واستقلالها ، وانقضى القرن التاسع عشر كله والامم الاسلامية مخدولة متخاذلة والدول المستعمرة غالبية متحكممة ، وخيل الى الناظرين ان الحاضر والمستقبل جميعا للاستعمار ، وانه قد جمع القوة والعلم والحضارة فلا نجاة من قبضته للذين حرموا القوة والعلم والحضارة واصبحوا في كل منها عالة على المستعمرين

ثم انتهى القرن التاسع عشر فكيف رأى الناس منتهاه ؟
الاستعمار يتراجع ولا يظفر بغناء من سلطان المال والعلم والسلاح

والاسلام تبرز له دولتان في آسيا عداد المسلمين في كل منهما يزيد على سبعين مليوناً ، وهما دولتا أندونيسية والباكستان . وسائر الدول في آسيا وافريقية تقترب من الحرية وتبتعد من ربقة العبودية ، وهذه هي قوة الصمود بعد اربعة عشر قرناً من الدعوة المحمدية ، لا ينظر المؤرخ في اطوارها على تعدد ظواهرها وادوارها الا وجب عليه أن يفترض لها سرا عجيبا كذلك السر العجيب في صدر الاسلام : سر الغلبة من حيث لا تنتظر الغلبة على دولتى العالم في مدى خمس سنوات

ان قوة الصمود هنا لعجيبه كقوة الغلبة هناك ، ولعلها - كما قدمنا - اعجب من قوة الغلبة ، لانها تملك الدفاع النافع ولا مال لديها ولا سلاح ولا علم ولا معرفة ، لا بل تملك الدفاع ولا اتفاق بينها على الدفاع

وندع الصراع في مجال الدول المتداولة بين السطوة والخضوع وبين النصر والهزيمة ، فان قوة العقيدة الاسلامية

قد سرت مسراها في أرجاء العالم بمعزل عن حروب الدول
وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، وفي افريقية اليوم
مائة مليون مسلم لا شأن في اسلامهم لدولة أو سياسة ، وقريب
من هذا العدد مسلمون في السومطرة وبلاد الجاوة ، وقريب
منه في الباكستان ، وقد يكون في الصين وما جاورها عدة
كهذه العدة من الملايين

وهؤلاء جميعا سرت فيهم عقيدة الاسلام بمعزل عن حروب
الدول وسياساتها وعن عروش العواهل وتيجانها ، أو كان
للدول والسياسات شأن في اسلامهم من بعيد متقطع غير
موصول ولا مقصود ، ولعله لو انحصر الامر فيه لا يكفي لاسلام
عدة من الناس تحسب بالالوف والمئات ، ولا ترتفع الى
عشرات الملايين فضلا عن مئات الملايين ، ولو حسب جهاد
المجاهدين في سبيل اسلامهم بعد الرعوس التي سقطت في
ميدان القتال ، لكان الرأس الواحد هنا عدلا في كفة الميزان
الآخرى لمئات الالوف

هذه القوة ، غالبية وصامدة ، تتطلب تفسيرا غير كلمة
العقيدة مجردة من خواصها ومزاياها ، ولا غنى لها عن مزية
تهيات لها ولم تنهيا للعقائد الاخرى التي لم يعرف عنها مثل
هذه الغلبة ومثل هذا الصمود ، وتلك حقيقة فطن لها الباحثون
في انتشار الاسلام من اصدقائه واعدائه على السواء ، فذهبوا
جميعا يلتمسون الدواعي التي يسرت لهذه الدعوة مالم يتيسر
لغيرها ، وهم متفقون على انفرادها بالمزية الخاصة مختلفون في
بيان تلك المزية على حسب اختلاف النية واختلاف الرغبة في
الحمد أو المذمة ، ومنهم مبشرون يلجأون الى المزايا التي تعينهم
على الاعتدال كلما وضع عجزهم عن تحويل المسلمين من دينهم
أو وضع عجزهم عن مجازاة الدعاة الاسلاميين في نشر دينهم
بغير مشتقة وبغير كلفة من المال والعتاد ووسائل التدريب

والتنظيم

فمن أسباب انتشار الإسلام في القارة الافريقية - عند فريق من هؤلاء الباحثين أو المبشرين - أنه لا يمنع تعدد الزوجات ولا يحول بين الرجل الافريقى وطلاق زوجته أو الاحتفاظ بما شاء منهن كما يشاء

ومن أسباب انتشاره عند الباحثين في سرعة الاقبال عليه بين الهنود أنه سوى بين الطوائف المنبوذة وغيرها من طوائف السادة والاشراف ، فاقبل المنبوذون عليه زرافات وبلغوا به من المكانة الاجتماعية ما لم يكونوا بالغيه بالعقيدة المفرقة بين الطوائف والطبقات

ومن هذه الاسباب عند الباحثين في سرعة انتشاره بين الاندلسيين أنه صادف ثمة شعبا فقيرا ساءت ظروفه بساداته من رجال الدنيا والدين وانكروا من أولئك السادات الدنيويين والدينيين تعاليا عليهم واشتغالا عنهم بلذتهم وابهتهم ، فرحبوا بأصحاب الدين الجديد ودخلوا في ملتهم لأنها ملة لا تفرق بين السادة والعبيد

ومن هذه الاسباب أنه دين بسيط سهل القواعد والاصول لا يحوج المتدين به بعد الايمان بالوحدانية وقرائض العبادة الى شيء من الفوامض والمراسم التي يدين بها اتباع العقائد الاخرى ولا يفقهون ما فحواها

وهذه كلها - على أصح ما تكون - أسباب محلية أو أسباب موقوفة تصلح لتعليل انتشار الدين في بيئة معينة أو في زمن معين ، ولكنها لا تلازم انتشاره في جميع البيئات والأزمان ، ومشكوك مع هذا في صدق تعليل بعضها في البيئة الواحدة كما قيل عن تعليل شيوع الاسلام بين الافريقيين وقلة اقبالهم على العقائد التي تحرم تعدد الزوجات

فليس تعدد الزوجات من اليسر بحيث يقدر عليه كل من

أرادته بين أولئك الأفريقيين ، ومن كان منهم قادرا على تعديل زوجاته وسراريه فهو يعددهن حتى الساعة كائنا ما كان اعتقاده أو كائنا ما كان دينه بين الأديان الكتابية ، وسائر القوم من غير ذوى القدرة على الجمع بين الزوجات الكثيرات قلما يعنيه السماح له بزوجة أو أكثر من زوجة ، وقلما يوجد في بيئته سجل يحصى عليه عقود الزواج والطلاق ، وقد أجمع الرحالون على صعوبة الاستعداد للزواج وتدبير المهر المطلوب بين قبائل افريقية الوسطى ، فلا يتأهل الشاب للبناء بالزوجة الواحدة إلا أن يكون ذا مال يحسب بما عنده من رءوس الماشية والانعام، ومن المستغرب حقا أن يتخيل المرء افريقيا يدخل في الدين ثم يخرج منه لأنه حال بينه وبين البناء بزوجة جديدة غير التي ارتبط بها بعقد من العقود على أيدي رجال الدين ، وأغرب من ذلك أن نتخيل الأفريقي الأعزب منتظرا متسائلا لا يدخل في الدين حتى يتبين ما يبيحه له أو يحرمه عليه من روابط الزواج

وإيا كان اثر العلاقات الزوجية في انتشار الاسلام بين الأفريقيين فمن المحقق أن هذه المسألة خاصة لم يكن لها شأن في منافسة الأديان الأخرى قبل القرن السادس عشر للميلاد ، فان تحريم تعدد الزوجات لم يرد في كتاب من كتب العهد القديم أو كتب العهد الجديد ، وكل ماورد في الانجيل أن القس ينبغي ألا يزيد على زوجة واحدة ان لم يكن بد من الزواج ، وقد جمع شارلمان في القرن التاسع بين زوجتين وزاد عدد زوجاته على خمس كلهن ب قيد الحياة غير من في القصر من السراى والزوجات « غير الشرعيات » . . . واعترف قبل مماته بعشرة من أبناء هؤلاء عدا الثمانية الذين ولدوا له من زوجاته دسدراتا وهولجارد وفسترادا (١) وعدا الأبناء الذين

Desidorata, Hildegard, Fastrada (١)

ولدوا له ولم يعترف بهم لانهم كانوا على غير ما يحب من سمات الامراء

ومن الاوهام الشائعة كما قلنا في كتابنا عن الفلسفة القرآنية « ان الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى اباح تعدد الزوجات بين الاديان الكتابية ... » لان الواقع الذى تدل عليه كتب الاسرائيليين والمسيحيين ان تعدد الزوجات لم يحرم في كتاب من كتب الاديان الثلاثة ، وكان عملا مشروعا عند انبياء بنى اسرائيل وملوكهم فتزوجوا بأكثر من واحدة وجمعوا بين عشرات الزوجات والجوارى في حرم واحد ، وروى وستر مارك Westermarck العالم الحجة في شئون الزواج على اختلاف النظم الانسانية « ان الكنيسة والدولة معا كانتا تقران تعدد الزوجات الى منتصف القرن السابع عشر ، وكان يقع غير نادر في الحالات التى لاتعنى بها الكنيسة عنايتها بزواج الاسر الكبيرة ، وكل ما حدث في القرن الاول للمسيحية ان الآباء كانوا يستحسنون من رجل الدين ان يقنع بزوجة واحدة ، وخير من ذلك ان يترهب ولا يتزوج بته ، فكانت الفكرة التى ذهبت الى استحسان الزواج الموحد هى فكرة الاكتفاء بأقل الشرور ، فان لم تتيسر الرهبانية فامرأة واحدة اهون شرا من امرأتين ، وكانت المرأة على الأطلاق شرا مجبضا وحبالة من حبالات الشيطان ، بل أخطر هذه الحبالات ، واستكثر أناس من آباء الكنيسة وفقهائها ان تكون لها روح علوية ، فبحثوا في ذلك واوشكوا ان يلحقوها بزمرة الحيوان الذى لا حياة له بعد فناء جسده ... »

ومن الواضح ان هذه المسألة بذاتها - مسألة الزواج والمرأة - لم تكن من المسائل التى تسبق الدخول في دين من الاديان ، ومامن أحد في افريقية وفي سائر القارات رأى المسلمين منفردين باباحة الجمع بين النساء في البيت الواحد ، وما من

وثنى على الفطرة إباح له الاسلام كل ما كان يستبيحه من الشهوات على دين آباءه ، وأولها المسكرات التى تفسو بين البدائين ويضيقون بمنعها أشد من ضيقهم بمنع تعدد الزوجات ، وما من عقبة قامت فى وجه المسيحية بين الشرقيين أو الغربيين لأنها كانت تحض على الرهبانية أو تنظر الى المرأة نظرتها الى شيطان أو حباله شيطان . فإذا آمن المرء بفساد عقيدة آباءه وأجداده فلا مناص له من قبول الدين الذى كشف له ذلك الفساد ثم يعالج بعد ذلك طاقته على احتمال أوامره ونواهيه ، ولا يرفض الأوامر لأنه يعصياها أو النواهي لأنه يقدر على اقترافها ، بل يحاول أن يكف عن المعاصي والذنوب ويرتقى فى الدين فوق مرتقاه

ولو كان الاقناع المنطقى يكفى وحده لتعليل الظواهر الاجتماعية أو التاريخية لصح أن يقال أن الاسلام قد شاع بين طوائف المنبوذين فى الهند لأنه يرفع عنهم لعنة المدلة والحرمان . فهم خلقاء أن يوازنوا بين منزلتهم فى دين آباءهم وأجدادهم ومنزلتهم فى الدين الاسلامى فيختاروا افضل المنزلتين ، وقد وازنوا واختاروا فدخلوا أفواجا فى الدين الجديد

غير أن الاقناع المنطقى لا يكفى وحده لتعليل ظواهر الاجتماع وظواهر التاريخ فيما له اتصال بآطوار السرائر على الخصوص ، أو لعل الاقناع المنطقى يكفى المؤرخ فى تعليل الظواهر الاجتماعية والتاريخية إذا اعتمد عليه فى كتابة التاريخ ولم يجعل الناس جميعا معتمدين عليه فى أعمالهم منقادين له فى إحاسيسهم ودخائل وجدانهم . فمن المنطق الصحيح أن يرجع المؤرخ بالحوادث الى الاسباب الثابتة والعوامل المقتعة ، وليس من المنطق الصحيح أن نتخيل الناس جميعا منطقيين حين يؤمنون أو حين يكفرون ، ومنطقيين فى تمييز الحق والباطل من الدواعى والاسباب

والواقع في أمر المنبوذين الهنديين ، وفي أمر المحرومين جميعا ، أنهم لم يكونوا اضعف ايمانا بعقيدتهم البرهمية من أبناء الطبقات العليا ، ولم يثبت قط أن التحول الى الاديان الأخرى كان بينهم أكثر وأسرع مما كان بين الطبقات العليا ، وربما وجدنا فيهم من يصبر على قسمته لانه يعتقد أنها شرط من شروط الخلاص الإبدى وكفارة عن المساوئ التي سلفت منه في أدوار الخلق الأولى ، وربما كان من المحرومين في كل أمة من هو أثبت ايمانا على دينه من ذوى النعمة والثراء ، لان جانب الوعد والامل قوى في الدين ، ونصيب المحروم من الوعد والامل أوفر من نصيب القانع المحدود

وقد حدث حقا أن أناسا من المنبوذين رحبوا بالدين الاسلامي ودخلوا فيه لارتياح نفوسهم اليه ولحسن ماعاينوه من القدوة الصالحة في سيرة المسلمين الوافدين على بلادهم والمقيمين بين ظهرانيهم ، ولكننا لا نجد من أسانيد التاريخ ولا من أسانيد العقل مانفهم منه أن الهنود الذين أسلموا كانوا جميعا من طوائف المنبوذين ، بل لانجد في تلك الاسانيد مايفهم منه أن الأكثرين كانوا منهم ولم يكونوا من طبقات العلية وذوى الوجاهة في المجتمع أو في الدولة الحاكمة ، وقد تحول الهنود الى الاسلام في بقاع الهند الغربية من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب حيث يوجد المنبوذون وحيث لا يوجدون ، وتحول أهل سومطرة وجاوة الى الاسلام بهذه الكثرة أو بأكثر منها وهم بوذيون يقل بينهم المنبوذون ، وتكاد الروايات المحفوظة عن أخبار الاسلام في الجزر الجاوية أن تجمع على ابتداء الاسلام بين الامراء والقادة ثم شيوخه بامرهم وهدايتهم بين رعاياهم الوثنيين ، ولعلها هي القاعدة المطردة في معظم الأمم الآسيوية من سكان الجزر الى سكان القارة الوسطى سواء من كان على الوثنية أو من دان في صباه ببعض الاديان الكتابية كما حدث في اسلام

« تكودار خان » أحد سلاطين المغول بأرض فارس ، وهو الذي نقل لنا القلقشندي في صبح الاعشى كتابا منه الى السلطان قلاوون بمصر يقول فيه :

« ... ان الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وربيعان الحداثة الى الاقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه افضل الصلاة والسلام بصديق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته ، فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام .. »

وقد اسلم على هذا النحو بعض زعماء القبائل الاثيوبية ، فلم ينحصر اقبال الاسيويين والافريقيين على الاسلام في طبقة واحدة من الرعية أو الرعاة ، وابتدأ التحول من العلية الى من دونها كما ابتدأ من الاتباع الى السادة والرؤساء

ومهما يكن من اثر الاسباب المحلية أو الموقوتة فلا بد من البحث عن سبب عام محيط بجميع هذه الاسباب التي تختلف فيها بيئة عن بيئة وزمن عن زمن وحالة عن حالة ، ولا بد من عامل واحد غير هذه العوامل التي تحبب الاسلام تارة الى الحاكم وتارة الى المحكوم وتفتح له السرائر في نفوس الضعفاء وفي نفوس الاقوياء ، وتجعله قوة تعين الغالبين على الغلب وتعين المظلومين على الصمود والدفاع ، ولا تخفى حقيقة هذا العامل بعد هذا الشمول ، فان حقيقته التي تتضح من احاطته بهذه العوامل كافة انه عقيدة شاملة ، وانه بذلك حقق الصفة الكبرى للعقيدة الدينية على اتم شروطها ، فما كانت سريرة الانسان لتطمئن كل الاطمئنان الى اعتقاد يفرقها بددا ويقسمها على نفسها ويترك منها جزءا لم تشمله بقوته ويقينه ، وقد يخرج من سلطانه فيملكه سواه

قلنا في ختام كتابنا عن عقائد المفكرين انه « لا التباس اليوم

بين وازع الاخلاق ووازع العقيدة الدينية ، وليس اتفاقهما في
الاباحة والتحرير احيانا بالذى يمنع الباحث ان يعرف لها
صبغتها ويميز طبيعتها ، فلا يخلط بين اوامر القانون واوامر
الاخلاق واوامر الدين

« والغالب على الاوامر القانونية انها ارادية تكتفى بتحقيق
السلامة ولا تذهب وراء الاسلام الا لزم الى شوط بعيد ، والغالب
على الاوامر الاخلاقية انها لدنية تعمل فيها الارادة شيئا ولكنها
لا تعمل كل شيء ، بل يتولى الشعور اهم البواعث في اعمال
الاخلاق ، ويشاهد فيها كثيرا نزوع الى ما وراء السلامة والالزوم
وتفضيل للأجمل الامثل من الامور ، فصاحب الوازع الاخلاقي
لا يقنع بفروض القانون ولا يزال متطلعا الى درجة اعلى من
درجات القانونين باجتنب العقاب والتزام ادنى الحدود

« اما الغالب على الاوامر الدينية او آداب العقيدة فهو
الشمول الذى يحيط بالارادة والشعور والظاهر والباطن
ولا يسمح لجانب من النفس ان يخلو منه ، ولا يقنع بالسلامة
او بالجمال الا ان تكون معهما الثقة التى لا تتزعزع في صميم
الحياة ، بل في صميم الوجود ، ومن السهل ان يقال ان حاسة
القانون تتولد في الانسان لانه عضو في مجتمع وان حاسة
الاخلاق تتولد فيه لانه فرد من افراد النوع الانسانى كله ،
ولكن ليس من السهل ان يقال ان الانسان مهتم بمصيره في
الكون لانه عضو في المجتمع او فرد من افراد النوع . . . وانما
يتدين الانسان لانه يهتم بمصيره ومعنى وجوده ويطلب له
قرارا اوسع جدا من علاقاته الانسانية او علاقاته بالمجتمع ،
ويجب ان يطلب عقيدة تحتويه ولا يكتفى بعقيدة يحتويها
ويريدها كما يشاء »

وعلى هذا الشرط - شرط الشمول في العقيدة - يكون
الاسلام هو العقيدة بين العقائد ، او هو العقيدة المثلى للانسان

منفردا ومجتما ، وعاملا لروحة أو عاملا لجسده ، وناظرا الى دنياه أو ناظرا الى آخرته ، ومسالما أو محاربا ، ومعطيا حق نفسه أو معطيا حق حاكمه وحكومته ، فلا يكون مسلما وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلما وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، ولا يكون مسلما لأنه روح تنكر الجسد أو لأنه جسد ينكر الروح أو لأنه يصحب اسلامه في حالة ويلعه في حالة اخرى ، رهينا بوساطة بينه وبين السماء يتولاها في المعابد سدنة موكلون بالوساطة بين المخلوق والخالق وبين العابد والمعبود ، ولكنما هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه في جميع حالاته وجميع حالاتها ، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أو اواصر الاجتماع

ان شمول العقيدة في ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية هو المزية الخاصة في العقيدة الاسلامية ، وهو المزية التي توحى الى الانسان انه « كل » شامل فيستريح من فصام العقائد التي تشطر السريرة شطرين ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق



عقيدة جامعة

يبدو الى الدهن أن الشمول الذي امتازت به العقيدة الإسلامية صفة خفية عميقة لا تظهر للناظر من قريب ولا بد لأظهارها من بحث عويص في قواعد الدين وأسرار الكتاب وفرائض المعاملات ، فليست هي مما يراه الناظر الوثني أو الناظر البدوي لأول وهلة قبل أن يطلع على حقائق الديانة ويتعمق في الاطلاع

ومن المحقق أن ادراك الشمول من الوجهة العلمية لا يتأتى بغير الدراسة الوافية والمقارنة المتغلغلة في وجوه الاتفاق ووجوه الاختلاف بين الديانات ، وبخاصة في شعائرها ومراسمها التي يتلاقى عليها المؤمنون في بيئاتهم الاجتماعية

ولكن الناظر القريب قد يدرك شمول العقيدة الإسلامية من مراقبة أحوال المسلم في معيشتة وعبادته ، ويكفي أن يرى المسلم مستقلا بعبادته عن الهيكل والصنم واليقونة والوثن كي يعلم أنه وحدة كاملة في دينه ويعلم من ثم كل ما يرغبه في ذلك الدين أيام أن كان الدين كله حكرا للكهنة ووقفا على المعبد نوعا على الشعائر والمراسم مدى الحياة

لقد ظهر الاسلام في أبان دولة الكهانة والمراسم ، وواجه أناسا من الوثنيين أو من أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود الى حالة كحالة الوثنية في تعظيم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والكهنة في كل كبيرة أو صغيرة من شعائر

العبادة ، ولاح للناس في القرن السابع للميلاد خاصة أن «المتدين» قطعة من المعبد لا تتم على انفرادها ولا تحسب لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه ، فالدين كله في المعبد عند الكاهن ، والمتدينون جميعا قطع متفرقة لا تستقل يوما بقوام الحياة الروحية ولا تزال معيشتها الخاصة والعامة تثوب الى المعبد لتترود منه شيئا تتم به عقيدتها ولا تستغنى عنه مدى الحياة

لا دين بمعزل عن المعبد والكاهن والإيقونة ، سواء في العبادة الوثنية أو في عبادة أهل الكتاب الى مابعد القرن السابع بأجيال متطاولة

فلما ظهر المسلم في تلك الآونة ظهر الشمول في عقيدته من نظرة واحدة ، ظهر أنه وحدة كاملة في أمر دينه يصلي حيث شاء ولا تتوقف له نجاة على مشيئة أحد من الكهان ، وهو مع الله في كل مكان ، وأينما تولوا فثم وجه الله

ويذهب المسلم الى الحج فلا يذهب اليه ليستتم من أحد بركة أو نعمة يضيفها عليه ، ولكنه يذهب اليه كما يذهب الالوف من اخوانه ، ويشتركون جميعا في شعائره على سنة المساواة ، بغير حاجة الى الكهانة والكهان ، وقد يكون السدنة الذين يراهم مجاورين للكعبة خداما لها وله يدلونه حين يطلب منهم الدلالة ، ويتركهم ان شاء فلا سبيل لاحد منهم عليه

فاذا توسع قليلا في العلم بشعائر الحج علم أن الحج لا يفرض عليه زيارة قبر الرسول ، وأن هذه الرسالة ليست من مناسك الدين ، وانها تحية منه يؤديها من عنده غير ملزم ، كما يؤدى التحية لكل دفين عزيز محبوب لديه

واذا توسع قليلا في مكان ذلك الرسول من الدين قرأ في القرآن الكريم : « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى . . »
وقرأ فيه : « فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظا ، ان عليك الا البلاغ »

وقرأ فيه : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين » .

وقرأ فيه : « وما أنت عليهم بجبار »

وقرأ فيه : « لست عليهم بمسيطر »

وقرأ فيه : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا »

وقرأ فيه آيات لاتخرج في وصف الرسالة عن معنى هذه الآيات



مر بنا أن فساد رجال الدين كان من أسباب انصراف اتباعهم عن دينهم ودخولهم أفواجا في عقيدة المسلمين

مثل هذا لا يحصل في أمة اسلامية فسد فيها رجال دينها ، فما من مسلم يذهب الى الهيكل ليقول لكاهنه : خذ دينك اليك فأننى لا أومن به لأننى لا أومن بك ولا أرى في سيرتك مصدقا لاوامرك ونواهيك أو اوامره ونواهيه

كلا . ما من رجل دين يبدو للمسلم إنه صاحب الدين وانه حين يؤمن بالله يؤمن به لأنه اله ذلك الرجل الذى يتوسط بينه وبينه أو يعطيه من نعمته قواما لروحه

« ... والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . ان تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير . يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد »

نعم . كلهم فقراء الى الله ، وكلهم لا فضل لواحد منهم على سائرهم الا بالتقوى ، وكلهم فى المسجد سواء ، فان لم يجدوا المسجد فمسجدهم كل مكان فوق الارض وتحت السماء

ان عقيدة المسلم شيء لا يتوقف على غيره ولا تبقى منه بقية وراء سره وجهره . ومن كان اماما له فى مسجده فلن ترتفع

به الامامة مقاما فوق مقام النبي صاحب الرسالة : النبي الذي
يُشِر وينذر ، ولا يتجبر ولا يسيطر ، ويبلغ قومه ما حمل
وعليهم ما حملوا ، وما على الرسول الا البلاغ المبين

ومنذ يسلم المسلم يصبح الاسلام شأنه الذي لا يعرف لاحد
حقا فيه أعظم من حقه أو حصة فيه أكبر من حصته ، أو
مكانا يأوى اليه ولا يكون الاسلام في غيره

كذلك لا ينقسم المسلم قسمين بين الدنيا والآخرة ، أو بين
الجسد والروح ، ولا يعاني هذا الفصام الذي يشق على النفس
احتماله ويحفظها في الواقع الى طلب العقيدة ولا يكون هو في
ذاته عقيدة تعتصم بها من الحيرة والانقسام :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من
الدنيا »

« وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا . ما جعل الله لرجل من
قلبين في جوفه »

فاذا كانت العقيدة التي تباعد المسافة بين الروح والجسد
تعفينا من العمل حين يشق علينا العمل - فالعقيدة التي توحد
الانسان وتجعله كلا مستقلا بذاته وآخرفته شفاء له من ذلك
الفصام الذي لا تستريح اليه السريرة الا حين تضطر الى الهرب
من عمل الانسان الكامل في حياته ، وحافز له الى الخلاص من
القهر كلما غلب على امره ووقع في قبضة سلطان غير سلطان
ربه ودينه

ومن هنا لم يذهب الاسلام مذهب التفرقة بين ما لله
وما لقيصر . لان الامر في الاسلام كله لله « بل لله الامر
جميعا » . « والله المشرق والمغرب » . « رب المشرق والمغرب
وما بينهما ان كنتم تعقلون »

وانما كانت التفرقة بين ما لله وما لقيصر تفرقة الضرورة التي
لا يقبلها المتدين وهو قادر على تطويع قيصر لامر الله . وهذا

التطويع هو الذى أوجبته العقيدة الشاملة وكان له الفضل فى
صمود الامم الاسلامية لسطوة الاستعمار وإيمانها الراسخ بأنها
دولة دائمة وحالة لا بد لها من تخويل

وقد أبت هذه العقيدة على الرجل أن يطيع الحاكم بجزء منه
ويطيع الله بغيره ، وأبت على المرأة أن تعطى بدنّها فى الزواج
لصاحبها وتناى عنه بزوجها وسريرتها ، وأبت على الإنسان
جملة أن يستريح الى « الفصام الوجدانى » ويحسبه حلا
لمشكلة الحكم والطاعة قابلا للدوام

ان هذا الشأن العظيم — شأن العقيدة الشاملة التى تجعل
المسلم « وحدة كاملة » — لا يتجلى واضحا قويا كما يتجلى من
عمل الفرد فى نشر العقيدة الاسلامية . فقد أسلم عشرات
الملايين فى الصحارى الافريقية على يدى تاجر فرد أو صاحب
طريقة متفرد فى خلوته لا يمتصم بسلطان هيكلا ولا بمراسم
كهانة ، وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد مالم تصنعه جموع
التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة ، فجملة من أسلموا فى البلاد
التي اقتصرت فيها جيوش الدول الاسلامية هم الآن اربعون مليونا
أو خمسون بين الهلال الخصيب وشواطئ البحرين الابيض
والاحمر ، فأما الذين أسلموا بالقذوة الفردية الصالحة فهم فوق
المائتين من الملايين ، أو هم كل من أسلم فى الهند والصين وجزائر
جاوة وصحارى افريقية وشواطئها الا القليل الذى لايزيد فى
بداءته على عشرات الألوف



وينبغى ان نفرق بين الاعتراف بحقوق الجسد وانكار حقوق
الروح . فان الاعتراف بحقوق للجسد لا يستلزم انكار
الروحانية ولا الحد من سبحاتها التى اشتهرت باسم التصوف
فى اللغة العربية أو اشتهرت باسم « الخفيات والسريرات » فى
اللغات الغربية **Mysticism**

اذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد كما لا يوصف بالشمول دين ينكر الروح ، وقد أشار القرآن الكريم الى الفارق بين عالم الظاهر وعالم الباطن في قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وذكر تسبيح الموجودات ماكانت له حياة ناطقة ومالم تكن له حياة « وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » . وأشار الى هذه الاشياء بضمير العقلاء ، وعلم منه المسلمون أن الله أقرب اليهم من حبل الوريد وأنه نور السموات والارض وأنه « هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم »

وحسب المرء أن يتعلم هذا من كتاب دينه ليبيح لنفسه من سبحات التصوف كل مايستباح في عقائد التوحيد ، ولعله لم يوجد في اهل دين من الاديان طرق للتصوف تبلغ مابلغته هذه الطرق بين المسلمين من الكثرة والنفوذ ، ولا وجه للمقابلة بين الاسلام وبين البرهمية أو بين البوذية مثلا في العقائد الصوفية . فان أنكار الجسد في البرهمية أو البوذية يخرجهما من عداد العقائد الشاملة التي يتقبلها الانسان بجملته غير منقطع من جسده أو عن دنياه

وحسب المرء أن يرضى مطالبه الروحية ولا يخالف عقائد دينه ليوصف ذلك الدين بالشمول ويبرا فيه الضمير من داء الفصام

كذلك يخاطب الاسلام العقل ولا يقصر خطابه على الضمير أو الوجدان ، وفي حكمه أن النظر بالعقل هو طريق الضمير الى الحقيقة ، وأن التفكير باب من أبواب الهداية التي يتحقق بها الايمان : « قل انما اعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » ... « كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » ... وما كان الشمول في العقيدة ليذهب فيها مذهبا أبعد وأوسع من خطاب الانسان روحا وجسدا وعقلا

وضميرها بغير بخس ولا افراط في ملكة من هذه الملكات

وفي مشكلة المشكلات التي تعرض للمتدين يعتدل المسلم بين الايمان بالقدر والايمان بالتبعة والحرية الانسانية ، فمن عقائد دينه « أن أجل الله اذا جاء لا يؤخر » ... « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب » ... « وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله » ... « وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا »

ومن عقائد دينه أيضا « ان الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .. « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .. « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم »

وليس في الاسلام ان الخطيئة موروثة في الانسان قبل ولادته ، ولا انه يحتاج في التوبة عنها الى كفارة من غيره . وقد قيل ان الإيمان بالقضاء والقدر هو علة جمود المسلمين ، وقيل على تقيض ذلك أنه كان حاقزهم الاول في صدر الاسلام على لقاء الموت وقلة المبالاة بفراق الحياة ، وحقيقة الامر ان المسلم الذي يترك العمل بحجة الاتكال على الله يخالف الله ورسوله لانه مأمور بأن يعمل في آيات الكتاب وأحاديث الرسول . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ... بل حقيقة الامر أن خلاصه كله موقوف عليه ، وان ايمانه بحريته وتدبيره لا يقتضى بداهة ان الله سبحانه مسلوب الحرية والتدبير

واصدق ما يقال في عقيدة القضاء والقدر انها قوة للقوى وعذر للضعيف ، وحافز لطالب العمل وتعلة لمن يهايه ولايقدر عليه ، وذلك ديدن الانسان في كل باعث وفي كل تعلة كما أوضحنا في الفارق بين أبى الطيب المتنبي وأبى العلاء المعرى وهما يقولان بقول واحد في عبث الجهد وعبث الحياة

فأبو الطيب يقول عن مراد النفوس :
ومراد النفوس أهون من أن نتعاضد فيه وأن نتفانى
ثم يتخذ من ذلك باعثا للجهد والكفاح فيقول :
غير أن الفتى يلاقى المنيا كالحات ولا يلقى الهوان
والمعري يقول أن التعب عبث لانه لا يؤدي بعده الى راحة
في الحياة ، ولكنه يعجب من أجل هذا لمن يتعبون ويطلبون المزيد
تعب كلها الحياة فما اعجب بـ الامن راغب في ازدياد

وعلى هذا المثال يقال تارة ان عقيدة القضاء والقدر نفعت
المسلمين ويقال تارة أخرى انها ضرتهم وأوكلتهم الى التواكل
والجمود ، وصواب القول أنهم ضعفوا قبل أن يفسروا القضاء
والقدر ذلك التفسير ، وتلك خديعة الطبع الضعيف .

وتوصف العقيدة الاسلامية بالشمول لانها تشمل الامم
الانسانية جميعا كما تشمل النفس الانسانية بجملة من عقل
وروح وضمير

فليس الاسلام دين أمة واحدة ولا هو دين طبقة واحدة ،
وليس هو للسلطنة المسلمين دون الضعفاء المسخرين ولا هو
للضعفاء المسخرين دون السادة المسلمين ، ولكنه رسالة تشمل
بنى الانسان من كل جنس وملة وقبيل : « وما أرسلناك الا
كافة للناس بشيرا ونذيرا » ... « قل يا ايها الناس انى
رسول الله اليكم جميعا الذى له ملك السموات والارض » ..
« قولوا آمنا بالله وما أنزل اليه وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل
واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى
النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ..
« أن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن
بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف
عليهم ولا هم يحزنون »

فهذه عقيدة انسانية شاملة لا تخص بنعمة الله أمة من الامم

لأنها من سلالة مختارة دون سائر السلالات لفضيلة غير فضيلة العمل والصلاح : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير »

وفي احاديث النبي عليه السلام انه « لا فضل لعربي على اعجمي ولا لقرشي على حبشي الا بالتقوى »

وليس للاسلام طبقة يؤثرها على طبقة او منزلة يؤثرها على منزلة ، فالناس درجات يتفاوتون بالعلم ويتفاوتون بالعمل ويتفاوتون بالرزق ويتفاوتون بالاخلاق « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات »

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير اولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وانفسهم »
« والله فضل بعضكم على بعض في الرزق »

« هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون »

واذا ذكر القرآن الضعف فلا يذكره لان الضعف نعمة او فضيلة مختارة لذاتها ، ولكنه يذكره ليقول للضعيف انه اهل لمعرفة الله اذا جاهد وصبر وانف ان يسخر لبه وقلبه للمستكبرين ، والا فانه لمن المجرمين

« يقول الدين استضعفوا للدين استكبروا لولا انتم لكانا مؤمنين . قال الدين استكبروا للدين استضعفوا نحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم . بل كنتم مجرمين »
« ونريد ان نمن على الدين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون

وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحلرون »

وما من ضعيف هو ضعيف اذا صبر على البلاء ، فاذا عرف الصبر عليه فانه لا قوى من العصبية الاشداء

« الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين »

فما كان الاله الذى يدين به المسلم اله ضعفاء او اله اقوياء ، ولكنه اله من يعمل ويصبر ويستحق العون بفضل فيه ، جزاؤه انه يكون مع الله ، والله مع الصابرين

بهذه العقيدة الشاملة غلب المسلمون اقوياء الارض ثم صمدوا لفلبة الاقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير وذاق المسلمون بأس القوة مغلوبين مدافعين

وهذه العقيدة الشاملة هى التى افردت الاسلام بمزية لم تعهد فى دين آخر من الاديان الكتابية ، فان تاريخ التحول الى هذه الاديان لم يسجل لنا قط تحولا اجماعيا اليها من دين كتابى آخر بمحض الرضا والاقتناع ، اذ كان المتحولون الى المسيحية او الى اليهودية قبلها فى اول نشأتها امما وثنية على الفطرة لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد او الاله الخالق المحيط بكل شىء ، ولم يحدث قط فى امة من الامم ذات الحضارة العريقة انها تركت عقيدتها لتتحول الى دين كتابى غير الاسلام ، وانما تفرد الاسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية ، فتحولت اليه الشعوب فيما بين النهرين وفى ارض الهلال الخصيب وفى مصر وفارس ، وهى امة عريقة فى الحضارة كانت قبل التحول الى الاسلام تؤمن بكتابها القديم ، وتحول اليه اناس من اهل الاندلس وصقلية كما تحول اليه اناس من اهل النوبة الذين غبروا على المسيحية اكثر من مائتى

سنة . وورغبهم جميعا فيه ذلك الشمول الذى يجمع النفس
والضمير ويعم بنى الانسان على تعدد الاقوام والاطوان ، ويحقق
المقصد الاكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد
الشرائع وعقائد الاخلاق وآداب الاجتماع

وابراز هذه المزية - مزية العقيدة الاسلامية التى اعانت
اصحابها على الغلب وعلى الدفاع والصمود - هو الذى نستعين
به على النظر فى مصير الاسلام بعد هاتين الحالتين ، ونريد بهما
حالة القوى الغالب وحالة الضعيف الذى لم يسلبه الضعف قوة
الصمود للاقوياء الى ان يحين الحين ويتبدل من حالتي الغالب
والمغلوب حالته التى يرجوها لغده المأمول . ولئن كانت حالة
الصمود حسنى الحالتين فى مواقف الضعف مع شمول العقيدة
وبقاءها صالحة للنفس الانسانية فى جملتها وللعالم الانسانى فى
جملته ، ليكون المصير فى الغد المأمول اكرم مايكون مع هذه
القوة وهذا الشمول



الإسلام والمسلمون

في القرن التاسع عشر

١ - الاسلام

انتهى الاسلام في اوائل القرن التاسع عشر للميلاد الى نهاية جزره من القوة النفسية والقوة المادية . لانه تلقى عن القرون الاربعة السابقة اثقالا من المتاعب والادواء لم تمتحن امة من قبله بمثلها ، وكان بعضها كافيا للقضاء على دولة الرومان الشرقية ودولتهم الغربية ، وبعضها كافيا للقضاء على دول الفراعنة والاكاسرة في الزمن القديم ، وان في هذا الميدان من ميادين المقارنة التاريخية لفارقا يبدو لنا في كثير من الصور بين عظمة الدين وعظمة السياسة ، فان دول السياسة تذهب ولا تعود ولا يوجد بعدها من يحاول اعادتها ، ولكن دولة الدين - او على الاصح قوة الدين - تبقى من وراء الامم والحكومات كانها القوام الذي تتعاقب عليه بنية في اثر بنية ، وهو باق يتجدد ولا يستسلم للفناء

ولا نعرف من المؤرخين من يستغرب مصاب الاسلام بعد مائتاه من الضربات منذ القرن العاشر الى القرن التاسع عشر للميلاد ، وانما الغريب عندهم هو تلك القوة المنيعة التي صابر بها الكوارث والشدائد زهاء تسعة قرون ، ولم يزل بعدها « وحدة انسانية » هائلة تتخذ مكانها بين هيئات الامم ولا تنزل على أمل وثيق في المزيد

ونستطيع ان نتخيل تلك القوة المنيعة بنظرة سريعة نعرض فيها طائفة من الكوارث والشدائد التي صابرتها وصبرت عليها

وهى محيطة بها من خارجها وناجمة فيها من داخلها وبين
ظهرانيتها

فقد مضت القرون الاربعة بين القرن الحادى عشر والقرن
الخامس عشر فى منازل الجيوش الصليبية ، ولم تكد هذه
الحروب تنتهى حتى خلفتها حروب « المسألة الشرقية » وهى
التي وقفت فيها الدولة العثمانية - وكانت يومئذ دولة
الخلافة - تناهض غارة بعد غارة من غارات الدول الاوربية التي
تألبت عليها واطلقت عليها اسم « الرجل المريض » لانها ...
كانت تتنازع ميراثه وهو بقيد الحياة

ولم تكد حروب المسألة الشرقية تنتهى بتنافس « الورثة »
على بقية الميراث حتى أعقبتها حملات الشركات وأصحاب
الديون ومعها حملات الاستعمار والتبشير

وقبل الحروب الصليبية وبعدها كان العالم الاسلامى عرضة
لاهل الغارات من قبل آسيا الوسطى التي كانت ترسل الفوج
بعد الفوج من عشائر التتر والمغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو
وغازان وتيمورلنك واتباعهم من القادة والأمراء وهم لا يفهمون
معنى الغلبة الا انها قدرة على الفتك والتدمير ، وأن أعظم
المنتصرين من يقاس انتصاره بعدد من قتل من المحاربين وغير
المحاربين ، وعدد ماضرب من المدن والقرى فى الطريق ...
ومنهم من كان يظهر الاسلام ويغير على ممالكه لانها فى زعمه
تساس على خلاف شريعة الاسلام !

وفى خلال ذلك جميعه كانت الدولة الاسلامية تتسع وتمتد
حتى ينقطع مابينها من الصلة ويتعذر على القائمين بها أن
يجمعوها الى حكومة واحدة ، وكان اتساع الآفاق يصحبه
اختلاف المواقع واختلاف السكان واختلاف المصالح والاهواء ،
فلا تلبث أن تتمزق وتتفرق ثم تتعاضد وتتعاون على البغى
والعدوان

ضربات لم تصمد لمثلها دولة من الدول الجامعة أو الدول التي
سميت بالامبراطوريات في الزمن القديم

وقد رأينا كثيرا من المؤرخين يوازنون بين اخطار هذه
الضربات ويجعلون الحروب الصليبية في مقدمتها ، أو يجعلونها
قائحة الضربات يتلوها ما تعاقب بعدها من الاخطار والاطءاء

وهذه الحروب - ولا نكران - كانت من اعظم الاخطار التي
امتحنّت بها الامم الاسلامية ، ولكننا نعتقد أن الخطر فيها انما
كان على نقيض المفهوم من هذا الخطر في عرف الجملة من
مؤرخيها ، لانها في الواقع لم تنهك قوى الامم الاسلامية ولم
تتركها موقنة بالهزيمة في نظر نفسها ، بل تركتها وقد أورثتها
افراطا في الثقة برجحانها وافراطا في سوء الظن بأعدائها ، وقد
كان هذا هو باب الخطر الجسيم الى عدة قرون

ومن آثار الحروب الصليبية التي لانفوت احدا من المؤرخين
انها وقفت عوامل الشقاق بين الامم الاسلامية ردحا من الزمن ،
وانها جاءت بالترك العثمانيين من اواسط آسيا الى ارض
الروم ودفعتهم الى مقابلة الفارة بمثلها في صميم الديار
الاوربية ، وانها ايقظت الشرق الاسلامى كله من تخوم الصين
الى جوف الصحراء الكبرى في القارة الافريقية ، وان احمق
الحمقى من الصليبيين كان انفعهم واقدروهم على اذكاء الحمية
في نفوس الامراء والسلاطين ، وان منهم لمن شغله الملك فوق
اشتغاله بالدين

وقد كان يوسف صلاح الدين بطل الحروب الصليبية غير
مدافع في نظر الاوربيين ونظر الشرقيين . ولكن الصفة التي
كانت غالبية عليه ولا شك هى صفة الحلم الراجح والاناة الهادئة
وايثار الكسب بالسلم والمطاولة على الكسب بالعنف
والهجوم ، الا ان هذا الرجل الخليم الرصين ثارت ثائرتة حتى
الجنون حين سمع بعزم « ارنولد » صاحب الكرك على فتح

الحجاز واعداده العدة في البر والبحر لاقتحام المدينة والمساس بالقبر الشريف ، وسرى وعيد أرنولد في المشرق كله فنسى الخصوم خصومتهم والطامعون مطامعهم وأقسم صلاح الدين ليقتلن « أرنولد » بيده . . فكانت وقعة « حطين » التي تعد من وقائع التاريخ الحاسمة وظفر صلاح الدين بشرذمة من الملوك والامراء عفا عنهم جميعا الا « أرنولد » هذا فانه لم يقبل فيه شفاعلة من أحد وتناول سيفه وضرب عنقه بيده وهو يقول : « برئت من شفاعلة محمد ان قبلت في هذا الاحمق شفاعلة شفيح »

وقد استنكر الصليبيون انفسهم حماقة أرنولد هذا لأنهم ادركوا انها استشارت من نفوس المسلمين كل قوة كامنة واكسبتهم وقعة « حطين » بعد هزيمتهم في الوقائع التي سبقتها ، وهكذا كان الشأن في احمق الحماقات التي اقترفها شذاذ الصليبيين ، فانها افادت من ارادوه بشرها ، وارتدت على اصحابها ، وعجلت بالتوفيق بين المتنازعين والمتنافسين وقد بطلت فيهم حيلة الموفقين

وليس هذا الذي نعينه من آثار الحروب الصليبية في نفوس المسلمين ، فانها آثار ظاهرة لم يغفل عنها أحد من مؤرخي تلك الحروب

ولكننا نعين الاثر الذي عاد بالضرر الوخيم بعد عصر الحروب الصليبية بقرنين او ثلاثة قرون ، وهذا الاثر الوخيم العقبي هو افراط المسلمين في الثقة بانفسهم وافراطهم في سوء الظن بالامم الاوربية وكل ما يأتي من نحوها ، حتى اوشكوا ان يوقنوا انها لا تأليهم يوما بشيء يحتاجون اليه ، ولولا هذه الثقة لما خطر لرجل كسليمان القانوني في حصافته واقتداره ان يتبرع بالامتيازات الاجنبية لابناء الامم الاوربية الوافدين على بلاده ، ولم يكن في وسعها ان تقصره عليها لو لم يتبرع

بها في غير اكتراث بعقبها

ان الامم الاسلامية قد انكرت على الاوربيين الذين قدموا في جيوش الصليبيين ضروبا من الخشونة والجلافة حسبها من البربرية التي تعافها وتشمئز منها ، ورسخ في نفوسهم ان هؤلاء القوم ليسوا بالمسيحيين لانهم لم يعملوا بوصية واحدة من وصايا المسيح التي يحفظها المسلمون ، وكان انكر ما استنكروه سماحهم بجلب النساء من بلادهم لمعاشرة الجند معاشرة الأزواج بغير زواج ، وكان اشد من ذلك نكرا لديهم انهم يعظمون الصور والتماثيل تعظيم عباد الاصنام للطواغيت والاونان ، فلم ينظروا اليهم نظرة الاعلين الى الادنين وحسب ، بل وقرت في أخلادهم سخافة ما يدعون من حق المطالبة بشيء قط باسم المسيح عليه السلام ، فهم في دعواهم مبطلون ، وهم غير أهل لتلك المطالبة لو كانوا صادقين

مثل هذا الشعور قد يحيك بصدور الامم في اوقات كثيرة فلا يضيرها ، بل يمددها في قوتها اذا خامرها في ابان النمو والصعود ، ولكن الظروف التي تطورت اليها الحروب الصليبية لم تكن من هذه الاوقات ، بل صادفت على النقيض فترة ذات وجهين من قبل الشرق ومن قبل الغرب ، فكانت في الشرق فترة هبوط في النهضة العلمية وكانت في الغرب فترة صعود في النهضة العلمية الحديثة ، قامت بعدها أوربا مقام القيادة على هذه النهضة وت خلف الشرق زمنا عن اللاحق بها ، وليس اخطر على الامم من الاكتفاء بالذات والاعتزاز بالرجحان في امثال هذه الظروف

هبطت النهضة العلمية في الشرق بعد القرن الثاني عشر على اثر الغارات التي تعاورته في كل مكان ، وانصبت كوارث هذه الغارات خاصة على معاهد العلم والمكتبات فعصفت بالعشرات منها ما بين بخارى ، وسمرقند ، ومرو ، وبغداد ، ودمشق ،

وحمص ، وسائر المدن التي اشتهرت بمعاهدها ومكتباتها في
الزمن القديم ، ويحصى عدد الكتب التي احترقت خلال غارات
التر ، والمغول ، وغارات الصليبيين بمئات الالوف وعدد
المعاهد والمكتبات بالعشرات والمئات ، وانصرف الامراء وطلاب
العلم عن العناية بالمدارس والمصنفات الى التاهب والاستعداد
لدفع المغيرين ممن كانوا يتوقعون غاراتهم واحدة تلو اخرى
بغير انقطاع ، وكثرت مطالب الحكام من المحكومين اضطرارا في
اول الامر ثم اختيارا واعتسافا مع تهادي الزمن حتى ساءت
الصلة بين الحاكم ومحكوميه ، وتراخى الزمن على اثر الحروب
الصليبية واستقرت الاحوال بعض الاستقرار فعاودت البلاد
الاسلامية الوسطى شيئا من رخائها عن طريق التجارة
الهندية ، ثم انقطع هذا الطريق واتجه الرواد الى غيره من
الطرق حول القارة الافريقية ، فاجتمع سوء الحكم الى سوء
الحال وشاعت الشبهة عن حق وعن باطل بين الرعاة والرعية ،
وهذه هي الفترة التي كان ينبغي فيها للشرق الاسلامي ان
يطلب المعرفة ويؤمن بضرورة العمل على التقدم او يؤمن بمزايا
العلم الحديث ، ولكنها كانت - بحكم هذه الظروف جميعا -
هي الفترة التي اعرض فيها الشرق عن كل حديث وعما ياتي
على الخصوص من قبل القارة الافريقية ، فتأخر عن ركب
الحضارة العصرية زهاء قرن كامل ، لو انه استفاده ناهضا
ومجاريا للنهضة في مضمارها لما قصر عن اللحاق بالسابقين

وجاءت المدارس العصرية من جانبين كلاهما مظنة للتهمة
وكلاهما موضع للخلل والاتقاء

جاءت المدارس العصرية على ايدي الحكومات التي بلغ
التنافر بينها وبين المحكومين حد العداء والاتهام بغير بحث ولا
روية ، فكان الناس يحسبون التلميذ المطلوب للمدرسة كالعامل
المطلوب للسخرة او كالجندي الذي يساق الى المشقة والوبال

في غير مصلحة أو كرامة

وجاءت المدارس العصرية أيضا على أيدي رسالات التبشير التي صارحت الناس في ظل الانتيازات الأجنبية بعرضها من فتح المدارس وقبول التلاميذ بغير أجر في كثير من البلدان ، فأحجم المسلمون عن تعليم أبنائهم في مدارسها وجاوزوا ذلك إلى سوء الظن بالعلم نفسه وسوء الظن بنية المعلمين وإيمان المتعلمين

وانقطع ما بين المسلمين وعلومهم الأولى فنذر فيهم من كان يتعلم النافع منها : كاللغة ، والأدب ، والرياضة ، وانقطع ما بينهم وبين العلوم العصرية ، فنظر الكثيرون منهم إلى علوم الجغرافيا ، والطبيعة ، والكيمياء ، كأنها الكفر البواح أو السحر المزييف ، واتصل ما بينهم وبين الخرافة والجهالة بهذا الانقطاع بينهم وبين العلم الصحيح قديمه وحديثه ، فاصطبغ فهمهم للدين بصبغة الجهل والتخريف ، وطلبوا الخلاص من غير بابه ، وتوسلوا للعمل فيه بغير أسبابه ، وأنهموا الناصحين وأسلموا مقادتهم للمدجلين والمحتالين

في هذه الفترة كان الإسلام كما يفهم الجهلاء - والجهلاء هم الأكثرون في سائر الأمم - مزيجا من الخرافة والشعوذة ومن الطلاسم والالوهام ، ومن الوثنية وعبادة الأوثان

في هذه الفترة كان بعض المتعلمين من أديعاء المعرفة يحكم بكثير القائلين بدوران الكرة الأرضية ، ولا يتردد في تكفير من يسميها بالكرة !

وفي هذه الفترة كان طلاب الفتوى من مشارق الأرض ومغاربها يسألون عن الكبريت : هل يجوز مسه ؟ وهل يجوز قدح النار منه ؟ وطبخ الطعام على تلك النار ؟ أو يأثم من يمس « صنفرته » لأنها من مادة نجسة تنقض الطهارة !

وفي هذه الفترة كان السائلون يسألون عن صناديق التوفير

والادخار ، وعن معاملات التجارة من طريق المصارف والشركات ، ويحسبون ان اللياذ بالاضرحة والتوايت وترتيل الاوراد والعزائم يفنيهم عن السعى والتدبير ، وعن الجهاد والاجتهاد

وفي هذه الفترة على الاجمال كان المسلم يعيش في العالم كمن يمشى في خرابة مظلمة ، لا يدري من أين تسرى اليه عقاربها وحياتها ، ومتى تخرج عليه اشباحها وشياطينها . وانقلب معنى الاسلام الى معنى المخافة والانهاك ، اذ كان اول معانى الاسلام انه طمأنينة الى الخالق وخلقه ، وكان هذا الاسلام الذى صار اليه المسلمون مخافة لا سلم فيها ولا سلامة ، واتهاما لا تسليم فيه ولا مسالة

قلنا ان الافراط فى الثقة بالنفس والاكتفاء بها كان فيما بعد الحروب الصليبية مضارعا للافراط فى سوء الظن بالاعداء وتوهم الاستغناء عنهم والريبة بكل ما يأتى من قبلهم ، وقلنا انه اكتفاء بالذات وخيم المغبة فى امثال هذه الاحوال

ونقول على الدوام انه ما من شر يخلو من بعض الخير ، وما من ضرر مطلق ان كان معنى الضرر المطلق انه لا يقبل الترياق او لا يحتويه فى كثير من الاحايين

هذه الفترة من الثقة العمياء لم تخل من فائدتها فى المقاومة والامل فى التبدل وفى عدل الله بين عباده ، ولم تكذب تبلغ اقصى مداها من الاضرار حتى جاءت بعدها نكبة الاستعمار بنقيض العبرة من دروس الحروب الصليبية ، لانها شككت المسلمين فى كفايتهم واستغنائهم وشككتهم فى رجحانهم وغابتهم ، وقام بين المساميين من يقول لهم ان الله لا يضر ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وان الغربيين نجحوا وتقدموا لانهم أخذوا بالوصايا والاحكام التى كان المسلمون اولى بها لو عقلوا وصايا الدين واحكامه

« عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون »
« فعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »
نعم . وفي اصطدام الشرق الاسلامى مرتين بالقارة الاوربية مصداق لهذه الايات البينات

انه سلم من الحروب الصليبية فاكتفى وقنع وغفل عما يحتاج اليه ، وانهزم فى وجه الاستعمار فعرف حاجته وتيقظ لنقصه ، واستقام على النهج الذى لا غنى له عن الاستقامة عليه ، وعادت به البأساء الى « العقيدة الشاملة » التى ميزته بين عقائد الاديان ، فهو فى مدة اليوم عند منتصف القرن العشرين ، فان لم يبلغ من مده اليوم ما يرجوه لقد ترك تلك المرحلة التى انتهى فيها الى جزره فى اوائل القرن التاسع عشر ، وما فى ذلك من خلاف



٢ - المسلمون

بدأ القرن التاسع عشر ، وفي العالم من المسلمين نحو ثلثمائة مليون ، وانتهى وعددهم حوالى اربعمائة مليون موزعين بين آسيا وافريقية ، وقليل منهم في أوروبا لا يزيدون على خمسة عشر مليونا بين البلقان ، والقرم ، والباثيا ، واليونان ، وقبرص ، ورودرس ، وبلاد البشناق ، وبولونيا ، وشواطئ بحر البلطيق في لتوانيا ، وفنلندا ، وما جاورها

ويؤخذ من الاحصاءات الاخيرة ان عدد المسلمين في دولتي الهند يقارب تسعين مليونا ، وانهم يبلغون في جزر السوند الكبرى ، وجزر السوند الصغرى ، وجزر الملوك التي تدخل في دولة اندونيسية نيفا وسبعين مليونا ، ويختلف المقدرون لعددهم في الصين من خمسة ملايين الى مائة مليون ، فتقويم جونا يقدرهم بثلاثين مليونا ، وجلال نوري بك صاحب كتاب اتحاد المسلمين يقدرهم في داخل الحدود الصينية ، وفي الجزر منشورية ، واناام ، وسيام ، والهند الصينية ، وفي الجزر التابعة لانجلترا من ارخبيل ملقا بنحو ستين مليونا ، اما احصاءات بعثات التبشير فهي تقدرهم تارة بثلاثة ملايين ، وتارة أخرى بخمسة ملايين في داخل حدود الصين ، ويرتفع الرحالة عبد الرشيد ابراهيم بعددهم الى مائة مليون ، ويقول هانوتو أحد وزراء الخارجية السابقين بفرنسا انه « قد انبعثت شعبة منه في الصين فانتشر فيها انتشارا هائلا حتى ذهب بعضهم الى القول بأن العشرين مليونا من المسلمين الموجودين

في الصين لا يلبثون ان يصيروا مائة مليون ، فيقوم الدعاء لله
مقام الدعاء لساكيامونى . . »

ويعقب السيد توفيق البكرى على هذا في رسالته عن
مستقبل الاسلام فيقول : « ان تاجرا بلوجيا جاء القاهرة في
هذه الايام وكان قد ذهب الى الصين مرارا ، يؤكد القول
بأن مسلمى الصين يبلغون ثمانين مليونا وان علماءهم يهزءون
بقول الاوربيين أنهم اربعون مليونا »

وقد تلقت الصحف الاوربية برقية من الجماعة الاسلامية
في الصين أرسلتها اثناء حرب الصين واليابان تقول فيها :
« انها تتكلم بلسان خمسين مليونا من المسلمين »

فلا مبالغة - مع ملاحظة هذه الاحصاءات جميعا - في
تقدير مسلمى الصين اليوم بنحو ستين مليونا ، يضاف اليهم
ثلاثون مليونا في التركستان ، وبخارى ، والقفجاق ، وغيرها
من ولايات روسيا الاسيوية ، ويضاف اليهم خمسة عشر
مليونا في ايران ، وبلاد الافغان ، وثلاثون مليونا في بلاد العرب
والعراق ، والشام ، وفلسطين ، وشرق الاردن ، وآسيا
الصغرى ، وبضعة ملايين في الجزر التابعة لانجلترا ، والولايات
المتحدة ، فلا يقل عدد المسلمين الاسيويين عن ثلثمائة مليون ،
وان قل ، فهو بين مائتين وخمسين وثلثمائة من الملايين

أما في افريقية ، فالتقدير المعتدل لهم يقارب مائة مليون ،
منهم خمسة وعشرون مليونا في مصر والسودان ، وعشرون
مليونا في طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش ، وعشرون
مليونا في الصحراء الغربية ، والسودان الفرنسى ، وبحيرة
تشاد ، والشواطىء الغربية ، ونحو عشرة ملايين في زنجبار ،
ومدغشقر ، والسواحل الشرقية ، والصومال ، وسائرهم بين
الحبشة ، واوغندا ، وكينيا ، وافريقية الجنوبية

فليس من المبالغة ان يقدر عدد المسلمين في العالم بأربعمائة

مليون أكثرهم في آسيا وأفريقية ، وأقلهم في أوروبا ، ماعدا
الوفا معدودة في العالم الجديد

فهم جميعا بحكم موقعهم من أبناء العالم القديم ، يقابلهم
سكان أوروبا الغربيون الذين نشأت بينهم الحضارة العصرية ،
ويصدق عليهم وصف واحد في المقابلة بينهم وبين الأوروبيين
المحدثين ، فلا يقال عنهم أنهم تقهقروا منتكسين إلى الزمن
القديم ، وإنما يقال عنهم أنهم وقفوا حيث تقدم قهرهم مع
العلم الحديث ، ولا ينسى المنصف في هذه المقابلة أن الأوروبيين
الذين تقدموا هم الأوروبيون الذين اتصلوا بالاسلام من قريب ،
وهم أبناء أوروبا الغربية ، ثم أبناء أوروبا الذين احتكوا بالاسلام
في الحروب الصليبية ، ولا نغنى أن اسباب التقدم تنحصر في
هذه الصلة أو في هذا الاحتكاك ، ولكننا نغنى أن الاسلام لم
يكن قط قوة مهمة في حركة من الحركات الانسانية سواء
نشأت بين ظهرانیه ، أو نشأت في مواطن أخرى ، وإن المؤرخ
المحقق لن يستقصى أسبابا للنهضات الانسانية على اختلافها
دون أن يرجع بمرحلة منها إلى نهاية أو إلى بداية في عالم
الاسلام

وفي هذا السياق ينبغي الالتفات إلى أمر واقع قلما يلتفت
إليه المؤرخون من الغربيين أو الشرقيين ، وهو أن محاربة
الاسلام كانت على الدوام نكبة على محاربيه من المستعمرين ،
فإن السابقين إلى الشرق من المستعمرين الأوروبيين هم
البرتغاليون والاسبان ، ولكنهم لم يثبتوا في الشرق طويلا
لأنهم ذهبوا إليه بسمعة العداء للاسلام ، وكان الاسبان
يسمون المسلمين في جزر الهند بالمر متابعة لما عهدوه من
تسمية المسلمين بالمراكشيين ، وكان البرتغاليون أول من نزل
بجزائر السوند الكبرى ، وجزائر السوند الصغرى ، وما
بينهما من الجزائر التي يكثر فيها المسلمون ، فلما تنافس

البرتغاليون والاسبان وغيرهم من ابناء اوربا الغربية وامريكا دارت الدائرة على الاولين لانهم وجدوا العداء من المسلمين ، حيث نزلوا بينهم ، وهكذا كان نصيب روسيا في آسيا الشمالية حيث اشتهرت بعداوة الخلافة الاسلامية ، فقد كان موقف المسلمين منها في التركستان ، ومنشوريا ، والصين الشمالية الغربية ، عقبة من اقوى العقبات التى رصدت لها في ذلك الطريق

هذه القوة التى لم تسقط يوما من حساب السياسة العالمية لن تسقط اليوم من هذا الحساب ، وقد توضع السياسات الظاهرة والخفية لحربها واقتصادها من الميدان ، ولكنها تتغلب على هذه السياسات حين تنقلب الامور على غير ارادة الساسة والمقدرين ، لأن العقيدة الدينية اثبت من برامج السياسة وخطتها الظاهرة والخفية ، بل هى اثبت من الجغرافية وما يسمونه حديثا بالسياسة الجغرافية ، لأن العقيدة الدينية تحول السكان حيث تثبت معالم الارض ورواسى الجبال

ونحن نستطرد هذا الاستطرد في مقدمة الكلام على المسلمين في القرن التاسع عشر ، لأنه يعيد الى الازهان اخطاء المقدرين واصحاب السياسات قبل مئات السنين ، ويجعل هذه الازهان على استعداد لانتظار اخطاء اخرى من هذا القبيل ، قد ينكشف عنها الزمن بعد آن قريب



انقسم العالم في بداءة القرن التاسع عشر الى حضارة حديثة في الغرب ، وحضارات قديمة في الاقطار الاسيوية والافريقية ، وكان المسلمون - الا القليل منهم - في هذه الاقطار

تخلفوا عن ركب الحضارة في الصناعات ، والمخترعات ، والعلوم الحديثة ، واصابهم هذا التخلف في مرافقهم جميعا

ومنها الزراعة ، والتجارة التى كان قوامها الاكبر على الملاحة
الشراعية ، فتراجعت شيئاً فشيئاً أمام ملاحاة البخار ،
وتراجعت كذلك عن سيادة البحار

ولما تقدمت مرافق الصناعة والتجارة فى الغرب تقدمت
معها وسائل التنظيم والإدارة ، وبقي الشرقيون جميعاً ،
والمسلمون منهم ، متخلفين فى هذه الوسائل الى ما قبل نهاية
القرن التاسع عشر بقليل

وأصبح العالم الاسلامى فى مقدمة الاهداف التى تصوبت
اليها حملات الغرب الثلاث ، وهى : حملات التبشير ،
والاستغلال ، والاستعمار ، ويتقدم التبشير هذه الحملات فى
ترتيب الزمن لا فى الخطر والاثـر . . . فانه قد بدأ مع الحروب
الصليبية حوالى القرن الثانى عشر ، وكان فى كثير من الاقطار
رائدا حملة الاستغلال وحملة الاستعمار

أما العالم الاسلامى من وجهة النظر الى مركزه السياسى ،
فقد كان معظمه عند أوائل القرن التاسع عشر فى حوزة الدول
الاجنبية ، ولم يبق فيه من الدول التى كانت على نصيب من
الاستقلال فى عرف السياسة غير دول ثلاث ، وهى : الدولة
العثمانية التى سميت بدولة الخلافة من عهد السلطان سليم ،
والدولة الايرانية ، والدولة الشريفة بالمغرب الاقصى

ولم تكن هذه الدول على شىء من الاستقلال فى غير الظاهر ،
لانها لم تكن تملك من حقوق التصرف فى سياستها الداخلية
او الخارجية ما تملكه الدول المستقلة ، واكبرها واقواها - وهى
الدولة العثمانية - كانت عرضة للتدخل الدائم من قبل الدول
الكبرى فى كل شأن من شئونها ، اذ كانت هى محور المسألة
الشرقية التى تتلخص فى عبارة واحدة ، وهى تقسيم بلاد
الشرق « أولا » بين روسيا ، وفرنسا ، وانجلترا ، ثم تلحق
بهذه الدول كل دولة أثبتت لها وجوداً فى ميدان الاستعمار

أو في ميدان السياسة العالمية على الإجمال ، كالنمسا ،
وبروسيا ، وإيطاليا ، وإسبانيا

١ - الدولة العثمانية :

وكانت المسألة الشرقية قائمة على محور الدولة العثمانية ،
ولكن الدول التي تعنيها هذه المسألة لم تكن على اتفاق في
طريقة التنفيذ ، ولم تكن على اتفاق كذلك في العجلة أو الأناة ،
ولم تكن على اتفاق بينها في نصيب كل منها من تركة «الرجل
المريض» كما سميت الدولة العثمانية في ذلك الحين

فروسيا كانت تتعجل التقسيم لتحل القسطنطينية
ومضايق البستفور ، والدردينيل ، وفرنسا كانت تتوسط بين
العجلة والأناة لأنها كانت تكتفي ببلبنان ، وسورية ، وبيت
المقدس ، ولا تحرص على تقويض الدولة العثمانية من رأسها ،
وانجلترا كانت تطمح الى طريق الهند ولا تأبى عند الضرورة
أن تساعد فرنسا لتستعين بها على صد روسيا والحيلولة بينها
وبين بلاد البحر الأبيض ، وحاولت كل منها أن تتخذ لها صفة
الرعاية لجميع المسيحيين بالديار الشرقية . . . وكانت روسيا
وفرنسا قد حصلتا على اعتراف من السلطان العثماني بهذه
الصفة ، أولاها لرعاية الكنيسة الإغريقية ، والآخرى لرعاية
الكنيسة اللاتينية فحاولت إنجلترا في أواخر القرن التاسع
عشر أن تضيف الى القاب التاج لقب الحارس للديانة المسيحية ،
ولكن المسيحيين أنفسهم في الشرق الأدنى لم يعترفوا لها بهذه
الصفة ، لأن أتباع الكنيسة الانجيلية كانوا يومئذ جد قليل
بين الشرقيين

ولم تجد هذه الدول صعوبة في اطلاق الدولة العثمانية ،
لأنها كانت تستخدم سلاح الامتيازات الأجنبية حين تشاء ،
وكيفما تشاء ، وكان القرن التاسع عشر عصر الحركات الوطنية
في بلاد المغرب والشرق ، فلم يكن من العسير على الدول أن

تجد المطاوعين لها في ثورتها على الحكم التركي سواء من المسيحيين ، وغير المسيحيين ، ومنهم مسلمون يطلبون الاستقلال أو ينقمون على الإدارة التركية ... ولكن الامر الجدير بالنظر أن السياسة الجهنمية لم تتورع عن خلق المذابح في المكان المطلوب وفي الآونة المطلوبة ، فحدثت مذابح ارمنية ، ومذابح لبنان ، ومذابح الاسكندرية على هذا التقدير كلما كانت لازمة لتنفيذ إحدى الخطط التي ترسم قبل ذلك بسنوات او شهور ، وكانت هذه المذابح هي التي تدعو الى التدخل من جانب الدول الكبرى ، اما المذابح في روسيا ، او في البلقان ، فلم يعرض لها أحد بمجرد الاحتجاج ، فضلا عن التدخل أو التهديد بالاحتلال

واصطلحت علل الضعف والجمود والخلل جميعا على الدولة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فانهزمت جيوشها في ميادين لم تتعود فيها غير النصر العاجل قبل هذه الفترة ، ولما ارادت أن تدرب جيوشها على النظام الحديث تمردت فرق « اليني شاري » التي كانت هي نفسها تجديدا على النظم الحديثة في حينها كما يدل عليه اسمها ، فقمعتها وكادت أن تستأصلها بالقليل الذي دربته على الاساليب العصرية ، قبل ان يتم لديها من الجيوش العصرية مايفنيها في حروبها المتتابعة . وكانت قد استكثرت من عقد القروض لسداد نفقات هذه الحروب ، واشباع نهمه السلاطين والأمراء الذين أفسدهم الضعف والاستبداد ، فانغمسوا في الترف والبذخ ، وكلفوا بلادهم مالا يطيق من الضرائب ، والاتاوات ، وأفضى سوء السياسة المالية الى اعلان الإفلاس والعجز عن أداء فوائد الديون (في سنة ١٨٧٤) في مواعيدها ، واعتمد سياسة الباب العالي في مقاومة الدول صواحب الديون وصواحب الامتيازات على المضاربة بينها ومنح الامتيازات الاقتصادية تارة لهذه ،

وتارة لغيرها ، وقد كانت الدولة البروسية تبرز شيئا فشيئا الى ميدان السياسة العالمية ، ولا سيما بعد حرب السبعين التي انتصرت فيها على فرنسا ، فاتخذ منها سياسة الباب العالي ذريعة للتخويف والتهديد ، ورحبوا بالاتفاق معها على اصلاح المواصلات الداخلية فمنحوها (في سنة ١٨٨٨) امتيازاً بعد الخط الحديدي الى انقرة بعد امتداده في المجر الى القسطنطينية ، واتبعوا هذا الامتياز بامتياز آخر لمد الخط الى قونية على ان تخترق السكة آسيا الصغرى الى الشام ويقطع ، ولم تقف الدولة الانجليزية مكتوفة اليدين امام هذا الخطر الذي يقترب من الهند ، ولكنها اضطرت الى التراجع والسكوت حين لمحت من بروسيا بوادر الاتفاق عليها مع فرنسا على هذا الجانب من جوانب المسألة الشرقية ، وعلى التدخل في القضية المصرية لمطالبتها بالجلء عن مصر تحقيقاً لوعدها

ومن خطوط المواصلات الهامة التي تمت في بلاد الدولة بين منتصف القرن التاسع عشر ونهايته قناة السويس (سنة ١٨٦٩) وسكة حديد الحجاز (من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٠٨) وهي السكة التي تجاوبت باخبارها دوائر الاستعمار على انها تعبئة من تعبئات الجامعة الاسلامية

والى هذه الآونة كانت كل دولة ذات اثر في المسألة الشرقية قد انتزعت لها قطعة من بلاد تركيا في اوربا او آسيا ، او افريقية ، ما عدا بروسيا التي سيطرت في هذه الآونة على الاقاليم الالمانية باجمعها ، فاغتنم عاهلها « ولهم الثاني » هذه الفرصة للتقرب من تركيا ومن العالم الاسلامي بأسره ، وزار الاستانة وبيت المقدس ونادى في بعض خطبه بصداقة دولته للثلاثة مليون مسلم المنتشرين بين بقاع المشرق ، ونظر سياسة الترك الى دولة اوربية يعتمدون عليها في تنظيم جيشهم

فلم يطمئنوا بطبيعة الحال الى روسيا ولم يجدوا عندها الكفاية الفنية لهذه المهمة ، ولم يطمئنوا الى انجلترا لان وزيرها جلاستون أعلن غير مرة وجوب « طرد الترك » بقضهم وقضيضهم من كل بقعة في أوربا ، فرحبوا بالمساعدة الالمانية على تنظيم الجيش وتدعيم الاسطول على حذر ، ولم يكن مبد الحميد داهية بنى عثمان لينسى مؤتمر برلين ومرامى الالمان في الوقت المعلوم نحو المشرق ، ولم تغب عنه الدعوة العسكرية والثقافية التي نجحت بين الالمان المعاصرين واتخذت صيحتها (الى الشرق) شعارا تردده وتعلق عليه الآمال في توسيع ملك الجرمان واستيلائهم على طريقهم من برلين الى آسيا الصغرى الى اواسط آسيا ، ولم يخف عليه ماوراء حملة العاهل الجرمانى على الاسيويين وتحذير الغرب من يقطتهم وتآليه الاوربيين على الشرق كله باسم الحذر من الخطر الاصفر ، فتوخى في سياسته على الدوام أن يجنح الى كل دولة من دول الاستعمار بمقدار وترك بعده ساسة تربوا في مدرسته (حتى من اقطاب تركية الفتاة) يנהجون نهجه في مسلكهم بين تلك الدول ، فكان الكثيرون منهم يميلون الى الحيدة عند اشتباك الحرب العالمية الاولى . وليس بالصحيح أن ساسة الترك كانوا مجمعين يومئذ على دخول الحرب الى جانب دولتى المحور ، ولكن الصحيح أن دول أوربا الغربية استشارت الترك الى محاربتها لتضمن بذلك معاونة الروس الى النهاية طمعا في القسطنطينية ، وتضمن معاونة المتربصين بالرجل المريض من دول البحر الابيض المتوسط وسائر الدول الطامحة الى الشرق الادنى ، وقد يفيد في بيان الاعاجيب من خفايا سياسة الاستعمار أن نوميء هنا - على غير تأييد ولا تفنيد - الى ما قيل عن دسائس المستعمرين التي أحكموا تدبيرها للتعجيل بالثورة الروسية بعد سقوط آل رومانوف ، فلعلهم لم يجدوا لهم من خلاصا أوفق من هذا للتحلل

من الاتفاق مع آل رومانوف على دخول القسطنطينية

٢ - إيران

كان على عرش ايران في مفتتح القرن التاسع عشر شاه من أسرة قاجار - اسمه فتح على شاه - تولى الملك بعد عمه أغا محمد الذي اشتهر بصرامته وقسوته في اخضاع ثوار السكرج وخراسان . وقد سمي فتح على باسم رأس الاسرة ولكنه لم يكن على نصيب من خلائق المؤسسين والفاحين غير الطمع وحب الفخفة ، فاعتر بمظاهر التعظيم التي احاطه بها رسل الدول الاجنبية وراقه أن يرى بلاطه قبلة للسفراء والوفود من ملوك الغرب فاستسلم لهذا الغرور وتحالف مع بريطانيا العظمى على الافغان لاسترجاع اقاليم فارس الشرقية ، وأملى له في مجارة السياسة البريطانية أن روسيا انتزعت من فارس بلاد الكرج تلبية لطلب أميرها جورج الثاني عشر ، فاستقبل الشاه مندوب شركة الهند الشرقية سير جون ملكولم وعقد معه محالفة سياسية تجارية تتعهد فيها الشركة بإمداد فارس بالسلاح والمال في حالة الاعتماد عليه من جانب الافغان أو فرنسا ، ويتعهد فيها الشاه بالآلا يعقد صلحا مع الافغان مالم تنزل هذه عن مطالبها في الهند ، وقد تمكن الشاه من صد الغارة الروسية على « اروان » في سنة ١٨٠٤ بمعاونة الضباط الانجليز وضغط السياسة الانجليزية . ثم أبرم في أواخر سنة ١٨١٤ - بعد نكبة نابليون - محالفة عامة تتعهد فيها فارس بإلغاء جميع الاتفاقات مع الدول المعادية لانجلترا وتتعهد فيها انجلترا بنقدها مائة وخمسين ألف جنيه وتبادل المعونة في حالة الدفاع

ولم تمض على هذه المعاهدة بضع سنوات حتى التحمت فارس وتركية في الحرب التي انتهت بصلح أرضروم ، ثم حاربت روسيا على اثر احتلال هذه لبعض الاقاليم المتنازع عليها فانهمزمت وتخلت عن اروان وتبريز (١٨٢٧) وخذلتها انجلترا

في هذه الحرب فاستدارت بسياستها الى مجارة روسيا . . .
واخرجت البعثة العسكرية الانجليزية التي قدمت اليها لتدريب
جيشها على النظم الحديثة وهاجمت « هرات » ثم تفاهمت مع
حكام الهند على فك الحصار عنها ، وفي سنة ١٨٥٦ شمرت انجلترا
الحرب على فارس - اذ عادت الى مهاجمة هرات واستولت عليها
فاحتل الانجليز بوشير والمحمرة وتراجع الجيش الايراني عن
ارض الافغان ثم تم الاتفاق على الحدود الافغانية الايرانية

وفي سنة ١٨٦٤ انشئ أول خط تلغرافي بين بغداد وطهران
وبوشير على اعتباره « توصيلة » للخطوط الهندية ، وافتتح
خط اوديسة وتفليس وطهران بعد ذلك ببضع سنوات

واستمر السباق بين انجلترا وروسيا على كسب الامتيازات
والرخص من الحكومة الايرانية ، فلما حصل البارون دي روتر
على امتياز باستغلال بعض الموارد الايرانية وارتهان المكوس
الجمركية أسرع الروس الى احباط هذا الامتياز وحصلوا على
الاذن بانشاء فرقة القوزاق والحاقها بجيش ايران . ثم احتلوا
مدينة « مرو » واستولوا على بلاد التركمان ، (سنة ١٨٨٤)
وتجددت مساعي الماليين الانجليز فمنحوا امتيازاً بافتتاح نهر
قارون للملاحة ، ومنح البارون دي روتر هذه المرة امتيازاً بانشاء
المصرف الامبراطوري مع الترخيص له باستغلال المناجم في ايران
ماعدا مناجم الذهب والفضة (سنة ١٨٨٩)

وبعد هذا الامتياز بسنة واحدة حصلت احدى الشركات على
امتياز الدخان المشهور الذي تصدى جمال الدين الافغانى
لاحباطه ، ثم تمادى الشاه (ناصر الدين) في الاقتراض وبلد
الرخص ورهن الموارد ، ومنها قرض انجليزي في مقابلة رهن
المكوس الجمركية بالخليج الفارسي ، فتمكن جمال الدين من التارة
القوم عليه واغرائهم بعصيانه واغتياله على البعد والقرب فقتل
في سنة ١٨٩٦ وقيل ان قاتله صاح به وهو يضربه (خذها من

جمال الدين

وجلس ابنه مظفر الدين على العرش فأصبحت إيران في عهده نهبا مقسما بين النفوذيين ومساعى المستغلين من الجانبين ، فتقدم بنك الخصم الفارسي - وهو فرع من وزارة المالية الروسية - باقراض الحكومة نيفا وعشرين مليون روبية في مقابلة مكوس الجمارك بجميع أنحاء البلاد ماعدا خليج فارس ، واشترط على الحكومة أن تصفى القرض الانجليزى ولا تتقبل قروضا اخرى مدى عشر سنوات (فى سنة ١٩٠٠)

واحتاج الشاه الى قرض آخر بعد سنتين فأمدته به الحكومة الروسية في مقابلة الترخيص لها بعد السكة الحديدية من جلفه الى تبريز فطهران ، وأوشك الاتفاق ان يتم على مد الخط الى شواطئ الخليج لولا المقاومة الشديدة من جانب الانجليز : فعززها مساعى الماليين على يد (دارسى) من زبلاندة الجديدة لاغناء خزانة ايران عن معونة الروس ، فانعقد الاتفاق بين دارسى D'Arcy وحكومة ايران على الترخيص له باستخراج النفط من منابعه التى كشفت بعد ذلك بمسجد سليمان ، وحصاة الحكومة من الارباح ست عشرة فى المائة عدا رسوم الامتياز وحصاة بقيمتها من أسهم الشركة

ولما كثرت المطالب والرهون على مكوس الجمارك وضعت الادارة كلها فى عهدة نوس البلجيكى وكادت الدولة ان تشهر افلاسها ، وتفاقم سخط الشعب فثار على الشاه وعلى وزيره عين الدولة المسئول عن سياسة القروض والرخص والرهون ، ولاذ الثوار بمبنى السفارة البريطانية (يولية سنة ١٩٠٦) فأسرع الشاه الى عزل عين الدولة والمناداة بالدستور ، وكظمه الفيظ فمات بعد افتتاح مجلس النواب بأسابيع (ديسمبر سنة ١٩٠٦)

أما الدولتان المتنافستان على أسلاب فارس فانهما قابلتا

املان الدستور بالاتفاق الودي المشهور باتفاق سنة ١٩٠٧ ،
فاعترفت روسيا بمصالح انجلترا في الخليج الفارسي واعتبرت
الجزء الجنوبي الشرقي في المملكة « دائرة نفوذ بريطانية » وسلمت
انجلترا باعتبار الجزء الشمالي منها دائرة نفوذ روسية ، وتركنا
بين الدائرتين بقعة مفتوحة لكلتا الدولتين ، وختمتا الاتفاق
بتوكيد الحرص على استقلال البلاد وسيادتها !

ولم تمض على هذا الاتفاق سنة واحدة حتى كان الشاه
الجديد « محمد علي » الهوية في ايدي الروس لانه اثر الخضوع
للدولة الاجنبية على الخضوع لاحكام الدستور . فاغلق المجلس
واعتقل اعضاءه وانصاره ، واعلن الحكم العرفي وامعن في
المتظاهرين تقيلا وتشريدا واستعان بالجيش الروسي على قمع
الشوار في تبريز ، وكانت قوتهم فيها غالبية على قوة الشاه

ثم اغتنمت انجلترا الفرصة فعملت على انشاء الشركة
الانجليزية الفارسية لاستغلال امتياز دارسي باستخراج النفط
في جزيرة عبدان ، واشتد غليان الشعور الوطني فهجم الزعيم
البختياري على قولي خان على طهران وخلع الشاه ، ثم ظهرت
السياسة الامريكية في الميدان فقدم الى طهران مستر مورجان
شستر Shuster - بطلب من المجلس - لتنظيم الادارة
المالية وافتتح عمله بانشاء فرقة عسكرية في خدمة الخزانة ،
وتطمين انجلترا بدعوة ضابط بريطاني لقيادة تلك الفرقة ،
فاطلقت روسيا الشاه من مأواه وارسلته الى « استراباد »
واغارت على الشمال مندرة المجلس بالتقدم الى الجنوب ان لم
يبادر الى طرد شستر ومرءوسيه ، فرفض المجلس انذارها
واصر على استبقائه ، وظهرت فجأة في طهران جماعة من
الرؤساء ذوي النفوذ بين القبائل فاغلقوا المجلس وقبضوا على
ازمة الحكومة ومن ورائهم قوة الدولة الروسية ، وظلت فارس
في قبضة الروس الى مابعد اعلان الحرب العالمية الاولى

كانت مراكش في بداية عصر الاستعمار أول هدف للمستعمرين لأنها كانت على أقرب نظرة من دول الاستعمار في أوروبا الغربية ، وكانت في الزاوية المقابلة لأوروبا الغربية تشرف على البحر الأبيض وعلى المحيط الأطلسي فكانت في هذا الموقع مطمح الأنظار أمام فرنسا وإسبانيا وإنجلترا ، ولكن فرنسا لم تتقدم إليها لأنها كانت مشغولة بحروبها في القارة وكانت تعلم أن إنجلترا لا تطبق دولة كبيرة على العدو المقابلة لجبل طارق ، وإسبانيا وصلت إلى أوائل القرن التاسع عشر وهي تلهث من الأعياء وتكاد بعد تنازع طلاب الملك فيها أن تصبح في عداد المستعمرات الخاضعة لغيرها . أما إنجلترا فكان جبل طارق يغنيها في ذلك الموقع عن العدو الأفريقية وكان همها أن تبقى مراكش في يد أبنائها وفي حوزة حكومة لا تقوى على منازعتها ، وكانت وجهتها الأولى أن تحتل البحر الأبيض من شرقه عند مجاز التجارة الهندية فلم تشأ أن تحسب عليها مراكش بدلا كبيرا في سوق المساومات الاستعمارية ، واتفق بعد ظهور ألمانيا في ميدان الاستعمار وانتصارها على فرنسا أن المسألة بحلها فيها طرحت على مائدة المؤتمرات الدولية فتفاهمت فرنسا وإنجلترا على التعاون المشترك في قضيتي مراكش ومصر واستقر الرأي على تقسيم مراكش بين فرنسا وإسبانيا والمنطقة الدولية

وقد بدأ القرن التاسع عشر ومراكش على شيء من القوة بالقباس إلى بلاد أفريقية الشمالية ، فتصدى زعمائها لمقاومة الفرنسيين بالجزائر بعد أن سلمت الدولة العثمانية بمركز الفرنسيين فيها وزحف الجيش المراكشي إلى تلمسان مستشيرا قبائل العرب والبربر في طريقه واستطاع « أبو معزى » المراكشي أن يقتحم الجزائر بعد احتلالها بخمس سنوات ولم يتمكن القائد الفرنسي من مقاومته إلا بنجدة قوية جاءت من فرنسا ،

ولكن سلطان مراكش لم ينقطع عن مناوشة فرنسا بعد هزيمة
أبي معزى واسره الى ان تلاقى الجيش المحتل وجيش السلطان
في سنة ١٨٤٤ فمنيت جيوش السلطان بهزيمة منسكرة
اضطربت لها جوانب المغرب ونبهتها من غفلتها فنهضت لاصلاح
الجيش وتثمين المرافق الوطنية ، ووافق ذلك قيام السلطان
« مولاي الحسن » بالملك - وهو من اقدر سلاطين المغرب -
فأحسن التصرف في مواجهة الدول المستعمرة والاستفادة من
تنافسها وتنازعها ، وادخل الاساليب العصرية على دواوين
الحكومة ومعامل الصناعة ومدارس التعليم وأكثر من افساد
البعثات الى جامعات الغرب لتخريج الخبراء في الشؤون الفنية
والعسكرية . ومن فضائح الاستعمار ان الدول الموقعة على
معاهدة مدريد احتجت عليه حين اتصل بالاستانة لمثل هذا
الفرض واعتبرت ذلك منه اشتراكا في حركة دينية معادية
لاتنظر اليها بعين الارتياح والاطمئنان ، واستنكرت تجديد
العلاقة بين حكومة الاستانة وحكومة طنجة والتمهيد لتبادل
السفارات بينهما لانه يغير الوضع السياسي الذي اتفقت تلك
الدول على أن تلاحظ فيه بقاء الحالة الراهنة

ولم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت دول الاستعمار في
موقف يسمح لها بالتفاهم على هذه القضية العسيرة . فبريطانيا
تحسب حساب اليقظة الوطنية في مصر فتجنح الى مسالمة
فرنسا ، وفرنسا تسترضي ايطاليا وتعدها بالاغضاء عن مطامعها
في ليبيا ، والنمسا تطمع في بلاد البشناق من تراث الدولة
العثمانية ، والمانيا تعلم ان الحرب العالمية تحول دون وصولها
الى مقام في المغرب الاقصى لمعارضة انجلترا وفرنسا وترضى
بنصيبها في الكونغو وبلاد التوجو من القارة الافريقية

وفي هذه الاثناء توفي السلطان الحسن وخلفه السلطان
عبد العزيز والمغرب الاقصى في اشد مأزقه وأحوجها الى الحزم

والحنكة ، فعبث في مقام الجد وسوا سمعته في العالم الاسلامي فضلا عن العالم الاوربي بما كان يشتغل به - أو يتلهى به على الاصح - من سفساف الامور ، وأرسل الى مصر وغيرها في طلب المغنين والراقصات وأطمع الدول في العدوان على بلاده بهزله وغرارته ، فانعقد مؤتمر الجزيرة (سنة ١٩٠٦) في أسوأ الظروف بالنسبة الى المغرب وشهده مندوبيون من قبل السلطان وافقوا على ما تقرّر فيه باتفاق الدول التي اشتركت فيه وعدتها بضع عشرة دولة ، وكانت قرارات المؤتمر في ظاهرها مؤيدة لاستقلال مراكش وسيادتها ولكنها ناطت بفرنسا مهمة الحراسة وتنظيم ادارة الشرطة ، فكان هذا الاعتراف بالاستقلال والسيادة من قبيل اعتراف انجلترا وروسيا باستقلال ايران ذودا للدول الاخرى عنها وانفرادا بالنفوذ فيها ، ومعنى الحراسة الفرنسية مع هذا الاستقلال هو اطلاق يد فرنسا شيئا فشيئا في البلاد وتحريم التعرض لها على غيرها

وشبت الثورة الوطنية على اثر مؤتمر الجزيرة لمعجز السلطان واسترساله في لهوه واسراعه الى اقرار الوضع الجديد في بلاده، فبويع السلطان عبد الحفيظ بعده وتعهد قبل مبايعته بمقاومة السيطرة الاجنبية واعلان الاحتجاج على قرارات مؤتمر الجزيرة، فتعلل الفرنسيون بهذه المقاومة للعهود الدولية واغاروا على العاصمة واعلنوا الحماية ، فكان اعلانها في تلك الآونة (١٩١٢) اول خطوة من الخطوات الحثيثة التي دفعت بالعالم الى الحرب العالمية الاولى ، ثم انطلقت يد فرنسا بعدها في شمال افريقية بغير معارضة من الدول المنهزمة التي كانت تحول بينها وبين التبسط في مطامع الاستعمار

وهكذا تطورت الحوادث بالدول الاسلامية المستقلة خلال القرن التاسع عشر الى اوائل القرن العشرين
أما الامم التي كانت في حكم غيرها خلال هذا القرن فشأنها

في حاضر الاسلام ومستقبله لا يقل عن شأن الدول المستقلة ،
سواء بكثرة عددها ومواقع بلادها ومكائنها من عالم الحضارة ،
وأكثر المسلمين عددا على هذا الترتيب هم مسلمو الهند
ومسلمو الجزر الشرقية (الهندونيسية) ومسلمو الصين .

١ - الهند

في أوائل القرن التاسع عشر ثبت حكم الانجليز في الهند
وخيل الى الاكثرين أنه قد صار فيها معلما من معالم الاقليم
كالجبال والانهار . . . وتندر المتندرون بموعد خروجهم منها
فرددوا تلك الكلمات المشهورة عن المواعد التي تضرب لوقوع
المستحيل ، ومنها أنهم يخرجون في الثلاثين من شهر فبراير ،
أو يخرجون حين يلتقى أحدان ، أو حين يلتقى المشرق والمغرب
وهيهات يلتقيان

وإذا كان ثمة أحد في الهند كان يؤمن بخروج الانجليز منها
لا محالة فهم مسلموها ، لانهم على يقين بوعد كتابهم أنهم هم
الاعزة إذا استقاموا من أمورهم ، ولا يغير الله مايقوم حتى
يغيروا ما بأنفسهم

وقد شعر المستعمرون بصعوبة مراس هذه الامة ودخلوا
الهند والدولة التي تقودها في أيدي المسلمين فجاربوهم وعملوا
على اضعافهم وصرح أحدهم لورد النبرو Ellenborough
بعداوتهم فقال : « ليس في وسعي أن أغمض عيني عن اليقين
بان هذا العنصر الاسلامي عدو أصيل العداوة لنا وأن سياستنا
الحقة ينبغي أن تتجه الى تقريب الهنديين » وجهر لورد
الفنستون Elphinstone في سنة ١٨٥٨ بوجوب التفرقة
بين المسلمين والهنديين في ادارة البلاد ، وهي الخطة التي نادى
بها كاتب المجلة الاسيوية قبل ذلك بنيف وثلاثين سنة

« وكان المسلمون في ابان دولتهم قانعين من الحياة العامة
بالوظيفة الحكومية وذادهم عن الاشتغال بالصيرفة انهم يحرمون

الربا ، وعن ملك الارض أن الارض لم تكن مملوكة لاحد ولكنها كانت متروكة للزراع والجبابة الذين يؤدون للحكومة حصتها من الضرائب ، وكان أكثر هؤلاء الجبابة من البرهميين المشتغلين ببيع الغلال وتصريفها ، فلما اصدر الانجليز قانونا لتسوية مسائل الارض الزراعية جعلوا هؤلاء الجبابة ملاكا وجعلوا الزراع اجراء في ارضهم واعتمدوا على هذا النظام زمنا لتحصيل الضرائب ومحاسبة الجبابة عليها ، فاجتمع الحرمان من الوظائف والحرمان من الارض على اقامة العزلة بين المسلمين وغيرهم في الحياة الاجتماعية » (١)

ثم زاد المسلمين ضعفا أنهم حرموا وسائل التعليم الحديث لان المدارس الحديثة كانت في أيدي المبشرين ، وأن البراهمة بالغوا في عزلة الطوائف والطبقات بعد انتشار الاسلام بين صفوفهم ، وشرح ذلك احدهم الاستاذ لونيا مدرس التاريخ وعلم السياسة بكلية هولكار فقال : « ان المسلمين أول قوم أغاروا على الهند ولم تستوعبهم حياة القارة الهندية المرنة التي لا تنى تمتد وتنطوى على المغيرين ، وقد أغار قبلهم كثيرون كالآغريق والسيثيين والمغول والمجوس وغيرهم وانطوا في القمار بعد أجيال قليلة انطواء تاما بأسمائهم ولغاتهم وعاداتهم وعقائدهم وأزيائهم وآرائهم ، وفنيت جموعهم في الواقع خلال المجتمعات الهندية الا المسلمين . فانهم لم يزالوا في الهند طائفة منفصلة ، ورفضت نياتهم المتشددة في الوحدة في كل هودة في قبول الشرك والارباب المتعددة ، ومن ثم عاش المسلمون والبرهميون في أرض واحدة دون أن يمتزجوا ولم تقلح محاولة من المحاولات في وضع القنطرة على الفجوة ، ومابرح المسلمون خلال القرون التالية يولون وجوههم شطر الكعبة بمكة وينفردون بشريعتهم ونظام ادارتهم ولغتهم وادبهم وأضرحتهم وأوليائهم »

(١) كتاب « القائد الأعظم » للمؤلف .

وشهد المؤلف بفضل المسلمين في تعليم أهل الهند مبادئ المساواة ولكنه قرن هذه الشهادة بقوله : « ان إحدى النتائج التي نجمت من حكم المسلمين في الهند ان المجتمع قد انقسم في عهدهم قسمة رأسية وكان قبل القرن الثالث عشر ينقسم ولكن قسمة غير رأسية ، ولم تستطع البوذية ولا الجينية أن تحدثا مثل هذا الانقسام لانهما ما عتمتا أن اندمجتا في المجموع بسهولة وسرعة ، على حين ان الاسلام قد شق المجتمع من الاسفل الى الاعلى شطرين متقابلين : براهمة ومسلمين فنشأ في أرض واحدة مجتمعان متوازيان متغايران في جميع طبقاتهما قل ان تصل بينهما علاقة في المعيشة أو معاشرة ، واشتدت محافظة البرهمنيين أمام غيرة الاسلام في نشر دعوتهم الدينية فاندفعوا مع خوفهم وحرصهم على حماية مجتمعهم والمبالغة في قيود الطبقات والطوائف وما اليها من القيود الاجتماعية »

وهذه القيود الاجتماعية تشمل الطعام والشراب والاعراس والمآتم بما فيها من مباحات عند قوم محرمات عند آخرين وازدادت هذه العزلة بعد شيوع المقاومة الوطنية بين الهنديين ، لان زعيمها الاكبر طيلاق بنى دعوته صراحة على تخليص الهند من الغرباء والغاء اللغة الاردية وابطال القوانين التي تحترم شعائر المسلمين ، ونظر الى المسلمين نظرتة الى الانجليز ، ثم نهجت على سنته جماعة الغلاة الذين جهروا بضرورة القضاء على كل اثر للاسلام في الهند وندبوا أحدهم لقتل غاندى لانه كان يوصى بغير هذه الخطة في معاملة المسلمين

ان الاستاذ لونيا الذي اقتبسنا ماتقدم من كلامه لم يعلل نجاح الاسلام حيث أخفقت البوذية والجينية ، ولو انه علل هذا النجاح بعلمته الصحيحة لظهر الخطأ البين في قول القائلين أن

الاسلام قد شاع بين المنبوذين لانه خولهم حقوق المساواة بينهم وبين سائر الطبقات . فان البوذية كانت خليقة ان تنجح مثل هذا النجاح لو كان مرجعه الى معاملة المنبوذين ، وانما يتجلى هنا سر نجاح الاسلام الذى اجملنا بيانه فيما تقدم من هذه الرسالة ، وهو شمول العقيدة الاسلامية وعلاجها النفس الانسانية من داء الفصام الذى يقلقها ولا يريحها الا باعتزال الدنيا وحل المشكلات بتجاهلها والخروج منها ، فهذا الشمول هو مصدر القوة الغالبة والقوة الصامدة في المسلمين ، وهو البقية التى بقيت لهم في الهند بعد زوال الدولة وزوال المناصب الكبرى والوظائف الصغرى والحرمان من ثروة الارض والمال ومن زاد العلم الحديث والخبرة العملية والعزاة امام الحكومة المسيطرة وامام الكثرة التى تربى على ثلاثة اضعاف . . . ومن أعماق هذه العقيدة الشاملة نجمت لهم عدة الخلاص حين لم يبق للهندي المسلم من عدة غير أنه مسلم وكفى ، وتحركت بينهم اقدر دعوة للاصلاح برعاية السيد أحمد خان ، ويرجع مبدؤها الى انشاء جماعته العلمية في عليجرة (سنة ١٨٦١) ثم انشاء صحيفته « تهذيب الاخلاق » وكلية عليجرة بعد رحلته الى انجلترا (سنة ١٨٧٠)

وتشعبت حركات النعاة الاسلاميين في الهند خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر على حسب اتساع الاقاليم والمشارب فظهر فيها من اتخذ من ابتداء القرن الرابع عشر للهجرة حجة للظهور بدعوة الاصلاح ثم دعوة المهديّة على قول من قال انه يظهر على رأس كل مائة سنة داع يجدد شباب الدين ، ومن هؤلاء غلام أحمد خان القادياني الذى نشر في أوائل القرن الهجرى كتابه « براهين الاحمدية » ثم ادعى انه المسيح المنتظر بعد بضع سنوات ثم ادعى (سنة ١٩٠٤) انه اقنوم كرشنا واقنوم الروح الالهى كله ، فاتبعه في اول الامر طائفة

من المصدقين ، ثم انقسم أتباعه فريقين : فريق يدين بنبؤته وفريق يحسبه من المصلحين ويرفض ما يروى عنه من دعوى النبوة والحلول . وقد أحيط ظهور القاديانى بالشبهات لانه لقي من تشجيع الحكام البريطان ما لم يكن مألوفاً منهم فى معاملة أمثاله ، ثم جاءت فتواه بقبول الحكم الاجنبى وتفسير أمر الجهاد على هوى الحكومة مرجحة عند الاكثرين لتلك الشبهات ، وانما استحق الخلاف عليه أن يقوى لان هذه الفتوى حملت على محمل التقية ، وهى مقبولة فى اعتقاد بعض الفرق من الشيعة منذ لقي الدعاة الى أهل البيت ما لقوا من عسف الامويين والعباسيين

على أن الهند - مع بعدها فى المشرق - كانت تتجاوب بكل صديق قريب أو بعيد من الدعوات الاسلامية فى بلاد العرب ، فسرعان ما ظهرت دعوة ابن عبد الوهاب بجزيرة العرب حتى تردد صداها فى البنغال (سنة ١٨٠٤) واتبعتها طائفة الفرائضية بنصوصها الحرفية . فاعتبرت الهند دار حرب الى أن تدبى بحكم الشريعة ، ثم تردد صدى الدعوة الوهابية بعد ذلك بزعمامة السيد أحمد الباريلى فى البنجاب وأوجب على أتباعه حمل السلاح لمحاربة السيخيين ، وتقدمهم فى القتال حتى قتل (سنة ١٨٣١) ونهض من بعده تلميذه كرامة على فاتصل بطريقة الفرائضية وأفتى بأن البلاد الاسلامية تجب فيها صلاة الجمعة ولا تحسب من ديار الحرب وان كان الحكم فيها لغير المسلمين

وترامت الى الهند أنباء الدعوة المهدية فى السودان وبخاصة بعد وقعة « هكس » المشهورة وانهمز القائد الانجليزى فيها ، فقد حذر الانجليز مغبة هذه الدعوة ونشروا فى أرجاء الهند مئات الآلاف من فتاوى العلماء المنكرين لها ، وذهب بعض ساستهم الى الزعيم المصرى « أحمد عرابى » فى منفاه بسيلان

يسألونه عن مهدي السودان فكان جوابه لهم من جنس
السؤال .. وقال لهم ان المهدي في الاسلام هو كل من
هداه الله

وقد تطلعت الهند الى دعوة جمال الدين الافغانى كما تطلعت
الى الدعوات التى سبقتها ، وصح فيها انها كانت لاتساعها
وتعدد بيئاتها اصلح الميادين لتجربة النافع والضار من حركات
العاملين باسم الدين ، فثبت من تجاربها جميعا أن اصلح
الحركات وأدومها أثرا هى حركات التجديد التى تجارى العصر
ولا تنقطع عن أصول الدين ، وأخفقت فيها حركات الجامدين
المتشبثين بالحروف ، كما حبطت فيها حركات المستعدين الذين
انقطعوا عن الأصول وخرقوا فى العقيدة خرقا يخالف جوهر
الاسلام

ولقد بدا القرن العشرون والمسلمون فى الهند يتطلعون الى
دولة الخلافة ، ثم أسفرت الحرب العالمية الاولى عن شدة فى
الحركة الوطنية لم تكن معهودة من قبلها ، ثم بلغت هذه الشدة
قصواها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية وتعاقبت التجارب التى
يراد بها تسليم الوطنيين زمام الحكم حتى استقرت على التجربة
الآخيرة بقيام دولتى الهند والباكستان

٢ - اندونيسية :

واذا كانت الهند أوفى الميادين بتجارب الحركات الدينية
فالجزر الاندونيسية أوفى الميادين بتجارب الاستعمار بأنواعه
ومشتقاته ، لانها كابدت ضروب الاستعمار التجارية والزراعية
والثقافية والسياسية ، واختبرت اساليب البرتغاليين
والهولنديين والفرنسيين والانجليز واليابانيين ، وعاصرت
الاستعمار من أيامه الاولى فى الشرق الى أيامه الأخيرة على
النحو الذى صار اليه فى القرن العشرين ، ولا نظن أن خطة من
خطط الاستعمار اتبعت فى ناحية من أنحاء العالم لم يتبع لها

شبيهه في هذه الجزر التي تعد بالآلاف

ولعل هذه الجزر أصلح مكان لتقرير الحقائق عن سر انتشار
الاسلام بين الامم التي كانت تدين بغيره قبل وصوله اليها .
ففى كل موضع فيها تصحيح لأوهام من يزعمون أنه دين
ينتشر بالسيف ولا ينتشر بغيره ، وفى كل موضع دليل من
الواقع على فعل القدوة الحسنة فى انتشاره بغير عنف بل بغير
اجتهاد فى الدعوة أكثر من الاخيان ، وحيثما وجد التجار
والرحالون من العرب على شواطئ هذه الجزر فهناك مسلمون
على المذهب الذى يأتون به من مذاهب الأئمة الأربعة ، وإذا
كان الترك على الأغلب يأتون بمذهب أبى حنيفة وكانت للعشائر
التركية دولة فى الهند فالدولة لم تصل الى الجزر بسلطانها
وقوتها بل وصلت اليها بالمسافرين من تجارها ومهاجريها ،
ولهذا يوجد الخنفىون حيث وجد هؤلاء التجار والمهاجرون
ويوجد الى جانبهم اتباع المذهب الشافعى الذين اقتدوا بالعرب
القادسين من بلادهم غرباء بغير دولة ولا صولة تكره الناس على
مذهبها فى شئون العقيدة ، وهى أعصى الشئون على الإكراه . .
ومع هؤلاء هؤلاء يوجد الشيعة حيث لم توجد قط دولة
ذات سلطان تدين بمذهب من مذاهبها ، ولم يزد عدد العرب
فى القرن التاسع عشر على ثلاثين ألفا فى جميع جزر الأرخبيل ،
ولكن المسلمين يقاربون سبعين مليوناً من أبناء البلاد الأصلاء
وبعض الهنود

وهذه البلاد من أغنى أقطار العالم بالمحصولات الزراعية ،
ينمو فيها القصب والبن والشاى والأرز والبطاطس وتنبث فيها
الأشجار التى تخرج الأصماغ المختلفة ومنها صمغ المطاط ،
وأشهر محصولاتها الأباذير والتوابل التى تهافتت عليها أوربا
ومن أجلها حاول الرحالون فى القرن الخامس عشر أن يصلوا
الى منابتها من المغرب ، فانكشفت لهم القارة الأوروبية على غير

انتظار ، وسميت جزرها بجزر الهند الغربية مقابلة لهذه
الجزر التي كانت تعرف باسم جزر الهند الشرقية

لا جرم كانت قبلة المستعمرين الاول وصحبت الاستعمار
من أول بعثاته الى عهده الاخير

وابناء هذه البلاد يتكلمون لغة واحدة هي لغة الملايا ، وشيوع
هذه اللغة بينهم مع شيوع الاسلام هو الذي وحدهم وعودهم
الشعور بقومية واحدة ، على الرغم من الجهود التي بذلت
للتفرقة بينهم باحياء اللهجات الاقليمية وتشجيع «الابجديات»
التي تلائم كل لهجة منها ، ومن مفارقات الزمن أن الاستعمار
قد زود هذه اللغة على غير قصد منه بالابجدية اللاتينية التي
رسمت لها كتابة واحدة لايسهل تنويعها وتفريقها على حسب
اللهجات في معاهد التعليم الحديث

جاءها البرتغاليون عند ختام القرن الخامس عشر ، ولم
يعرفها الهولنديون الا بعد قرن كامل ، ثم تبعهم الانجليز
والفرنسيون ، وظفر الهولنديون بمعونة ابناء البلاد لانهم
جاءوهم بعد البرتغاليين فحالفهم الوطنيون للخلاص من هؤلاء
واقصائهم عن أسواق المشرق ، وتكاثرت شركات التجارة
الهولندية تنافسا على الربح الغزير الذي استأثرت به الشركة
الاولى ، فوحدت حكومة هولندا بين هذه الشركات وجمعتها
الى شركة واحدة هي شركة الهند الشرقية الهولندية ، وقد
تعاقدت هذه الشركة في مطلع القرن السابع عشر مع مملكة
بنتم على احتكار التجارة في موانئها واسواقها واعفاؤها من
الضرائب وامدادها بالجند والعدة اللازمة لصيد الشركات
الاوروبية الاخرى ، اذا ادى اغلاق الموانئ دون بسفنها الى
الاعتماد على بلاد المملكة

ولما وفد التجار الانجليز على الجزر كان الهولنديون قد
اسرفوا في مطالبهم فحرب القوم بالانجليز واعانوهم على الشركة

الهولندية ، ولكن هذه لم تلبث أن عادت بقوة بحرية كبيرة وحاصرت الموانئ ومنعت خروج السفن منها ثم تغلبوا على جزيرة جاوة وافتتحوا عهد استعمارهم بأنشاء مدرسة في العاصمة « جاكرتا » تتبعها كنيسة ، واغتنموا فرصة النزاع بين الامراء فضربوا بعضهم ببعض وكادوا ينهزمون لولا المعونة الوطنية التي أسعفتهم مرارا في أشد أوقات الحاجة اليها

الا أن التنافس التجارى بين المستعمرين قد اضطر الشركة الى التحول من التجارة الى الزراعة ، واضطرها التنافس كذلك الى الاكثار من بناء السفن الحربية والاستعداد بالاسلحة والذخائر ، ووقعت الحرب بين الدولتين الهولندية والانجليزية فكسدت تجارة الشركة ولجأت الى الاستدانة ونزلت على كره منها عن عقود الاحتكار التي اتفقت عليها مع الوطنيين ، ثم احتلت فرنسا أرض هولندية في اثناء الحرب الفرنسية الانجليزية فاستولى الانجليز على مستعمرات هولندية جميعا ، وآلت البلاد الى شركة الهند الشرقية الانجليزية حتى أوائل القرن التاسع عشر ، فسعى بعض الامراء والمصلحين الى الحاكم الانجليزى لاقناعه بتوحيد الامارات الاندونيسية فى شبه ولايات متحدة تتولاها هيئة نيابية . . . فلم يقبل مجلس الشركة في لندن هذا الاقتراح ! واستعاض عنه بالاكثار من الحكومات المحلية وألغاء قوانين السخرة وتخفيف بعض الضرائب واحتكار تجارة الملح لتعويض خزانة الشركة عن الضرائب الملقاة

ولما عاد الى هولندية استقلالها بعد انهزام نابليون امام الجيش الانجليزى الهولندى فى وقعة « واترلو » طالبت بمستعمراتها المختلفة فردت لها . . . وظهر القادة العسكريون المسيطرون على تلك المستعمرات عصيانا « متفقا عليه » حتى تم الاتفاق بين الدولتين (سنة ١٨٢٤) على تسوية تحفظ لانجلترا جزءا من المستعمرات وتعيد سائرها الى الحكومة الهولندية

وعادت الادارة الهولندية الى السخرة وزيادة الضرائب وحرمان البلاد من غلاتها ومحاصيلها فتعاقبت الثورات مع المجاعات والازمات الاقتصادية ، وكاد السخط على الحكومة المستعمرة أن يعصف بها لولا استغلال الواقعة بين أمراء الممالك وتآليب صغارهم على كبارهم وأنقياد صغارهم للديسياسة الاجنبية خوفا على سلطانهم المحدود من غلبة الامراء الكبار عليهم . ولم تهدأ هذه القلاقل الا في السنوات الاولى من القرن العشرين ، ثم ادعت هولندة كما اذعن غيرها من دول الاستعمار لمطالب النهضة الوطنية بعد الحرب العالمية الاولى ، فاستجابت الشعب الاندونيسى الى بعض حقوق الحكومة الذاتية وقامت المجالس النيابية في هذه البلاد لأول مرة في ظل الاستعمار

ويرجع فضل النهضة الوطنية الى يقظة المسلمين وتأسيس اول جماعة من جماعات الاصلاح باسم « شركة اسلام » وهى الجماعة التى انضوت اليها جماعات متعددة بعد ذلك باسم « مسجوى » . . . كلمة منحوتة من « مجلس سجورو مسلمين اندونيسية »
Madjelis sjuro muslimin Indonesia

واكثر القائمين بهذه الدعوة من تلاميذ الشيخ محمد عبده وقراء تفسيره بمجلة المنار ، لانهم استفادوا من تجارب الاصلاح السابقة على مقربة منهم فى الهند ، واتفق نشاطهم للاصلاح بعد توافر اسبابه فى ابان دعوة الاستاذ الامام بالديار المصرية ، وهى دعوة تعول على تعزيز الجامعة الاسلامية من الوجهة الثقافية ولا تشتد فى طلبها من الوجهة السياسية على طريقة جمال الدين ، وقد تمحصت التجارب خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر بعد حركة الجامعة الاسلامية الاولى وبعد حركة الخلافة فى الهند ، فأسفرت عن رجحان المنهج القويم الذى اختاره الاستاذ الامام رحمه الله

٣ - الصين :

ومسلمو الصين لهم تاريخ يتناقلونه عن السلف وتغلب عليه الصحة ، وانما يرجع الخطأ فيه الى تعديل التقاويم الصينية من حين الى حين ، بحيث تتسع في بعض العصور لفرق عشرين سنة أو ثلاثين تزيد تارة وتنقص أخرى ، وعلى حسب التاريخ الذى يتناقلونه يكون الاسلام قد دخل الى الصين بعد الهجرة النبوية بقليل . وقد هزم المسلمون الفرس والروم معا بعد الهجرة النبوية بجيل واحد فأرسل كلاهما الى الصين يستغيثون بابن السماء ويهولون له في خطب هذا العدو الظافر . . فلما منهم أن هذا التهويل يخفزه الى المبادرة باغاثتهم في الطريق حرصا على حدود الصين ، فكان هذا العاهل أحذر معا حسبه ، ودعته استغاثة الروم بعد استغاثة الفرس الى مسالمة هذه القوة الجديدة ، فأوفد رسله الى الخليفة عثمان وقابل الخليفة هذا التقرب بمثله فأوفد اليه بعثة قوبلت بالحفاوة والترحاب

وقبل أن يمضى قرن واحد على هذه الزيارات عرضت لبلاط الصين تلك المشكلة التى حيرت سفراء الغرب وقهارمة البلاط فى مملكة ابن السماء بعد أكثر من عشرة قرون ، حين اشترط ابن السماء على السفراء أن يتقدموا اليه راكعين وعزى على هؤلاء السفراء أن يخيوه بتحية أكبر من تحياتهم للوكةم . فان العاهل سوان تسنج غره ماسمعه عن اضطراب أحوال الدولة الاسلامية فجرد على تخومها جيشا كبيرا يريد أن يدحر به جيش قتيبة بن مسلم الرابض على تلك التخوم . فانهزم وأمر قتيبة الرسل الذين أنفداهم الى بلاط ابن السماء أن يعرضوا عليه الاسلام أو الجزية أو مواصلة القتال . فدخل هؤلاء الرسل على ابن السماء لأول مرة مترفعين عن السجود منذرين متوعدين . ثم مات الخليفة الوليد وقتل قتيبة وأجرل العاهل

عطاء الجيش الاسلامى واذن لهم بالبقاء فى بلاده ، فسموا باسم القبيلة الصينية التى كانت الى جوارهم ودانت بالاسلام مقتدية بهم ، وهى قبيلة هوى شوى ، ولا يزال المسلمون جميعا يعرفون باسم « هوى هوى » فى جميع بلاد الصين

ويؤخذ من سجلات اسرة تانج ان الدولة كانت تمنح الاسر الاسلامية المقيمة فى « سيانفو » خمسمائة الف اوقية من الفضة كل سنة ، وهو عطاء فرضته الدولة على نفسها مكافأة لهم على نجدتهم للعاهل « سو تسنج » الذى ثار به الجند بعد اكرامه ابيه على النزول عن العرش ، فاستنجد بالخليفة العباسى ابنى جعفر فأمدّه ببضعة آلاف جندى هزموا الثوار واقروه على عرشه فاستبقاهم فى أرضه (سنة ٧٥٧) . . . ومن هؤلاء ومن سبقهم من جنود قتيبة تناسل المسلمون فى غرب الصين

الا ان المسلمين قد دخلوا الصين من غير طريق الغرب ، ولم ينقطع تجارهم وسياحهم والملاحون منهم عن زيارة موانئ الجنوب فى كانتون وما جاورها ، واوغل بعضهم الى داخل البلاد من الجنوب والغرب والشمال مع القبائل الرحل فلم يخل منهم اقليم فى الاقطار الصينية على الاجمال ، ويسمى المسلمون فى الشمال الغربى عند قانصوه وشنشى بالتنجان أى المنتقلين الى الدين الجديد ، ويسمون فى سنكيانج بالترك لانهم من السلالات التركية فى التركستان ، ويسمون فى يونان بالبنشاي وهم من سلالة الترك والعرب واهل الصين الاقدمين ، وليس هؤلاء جميعا من سلالة المسلمين الاولين ، بل منهم اناس من ابناء الصين آثروا الاسلام اعجابا باهله ، ومنهم من كان آباؤهم يبيعونهم فى اعوام المجاعة فينشأون بين المسلمين على عقيدتهم، ولم يحل تحريم المسلمين اكل الخنزير وتعاطى الخمر والمخدرات دون اجتذاب جيرانهم الى دينهم بالقدوة الحسنة

والمعاملة المرضية والامانة في التجارة والزراعة ، فأسلم كثيرون
بغير اكراه على قلة اكراث الصينيين بالتحول من دين الى دين
لانهم لا يبالون ما يعتقدون اذا تركت لهم عبادة الاسلاف ورعاية
التقاليد في الشعائر وآداب السلوك

وقد شقى المسلمون في الصين بحكم أسرة المانشو في القرنين
الثامن عشر والتاسع عشر ، وعلمت هذه الاسرة الواغلة تاريخ
المسلمين في نصرة الاسرة المخدولة فاشفقت من ثورتهم وتعللت
لهم بالعلل التي تصطبغ بضبعة الدين لتنفير البوذيين منهم ،
فحرمت عليهم ذبح البقر (سنة ١٧٣١) مع أنها تبيع ذبح
الخنزير ، وظنت أنها ترضى بذلك طوائف البوذيين وترضى
سائر أهل الصين الذين يبيعون الخنزير ويسرهم أن يضطر
المسلمون الى اكله بعد تحريم لحوم البقر عليهم ، فثار المسلمون
وتتابعت ثوراتهم وهزموا جنود الحكومة في معارك كثيرة ومنها
معركة في التركستان الصينية قتل فيها ألفان وانتحر الوالى
خوفا من القصاص (١٨٦٣) . وفى هذه الآونة استقل البطل
التنجاني يعقوب بك بحكم التركستان وأوشك أن ينفصل بها
وبالاقليم المجاور لها لولا أنه مات فجأة (١٨٧٧) واختلف
أتباعه وقادة جنده فتلاحقت بعده المذابح والثورات ، الى أن
سقطت دولة المانشو وكان لثورات المسلمين في الغرب والشمال
أثر في اسقاطها وتحريض الناقمين منها على مهاجمتها

وقد أحس المستعمرون الشرقيون والغربيون وطأة الصينيين
المسلمين في حروب تلك الدول مع الصين ، وكانت اليابان أول
من تعرض لبأسهم في حربها مع الصين (سنة ١٨٧٥) فخطبت
ودهم وتقربت منهم جهرة وخفية ، ثم أوفدت سفراءها من
أمراء البيت المالئ الى دار الخلافة لتستميل اليها المسلمين
الصينيين في خصوماتها مع أسرة المانشو ومع الروس في وقتها
واحد ، وكانت اسرة المانشو قد حرمت على المسلمين الاتصال

بالعالم الخارج فتعذر عليهم أداء فريضة الحج ولكنهم كانوا يتخيلون على الخروج لاداء هذه الفريضة بمختلف الحيل ، فلما أحست بمساعي الدول بينهم وتسلسل الدعاة اليهم من اليابان والروس والترك وحكومة الهند ضربت حولهم السدود وحظرت العودة على من يغادر منهم البلاد للحج أو لطلب العلم، فنشأت بينهم عادة غريبة وهى عادة الحج بالنيابة ، وتوافد عليهم فقراء المسلمين من الامم القريبة لينوبوا عنهم فى الحج بأسمائهم ، خوفا من النفي الدائم اذا غادروا البلاد بغير اذن الحكومة ، ولم تخل القيود من اثرها المحمود . فانها ضاعفت عنايتهم بدراسة الدين وحفظ القرآن فكثرت بينهم من يعرفون لغته ويقرءون بها قراءة المجتهد فى أرض معزولة عن الثقافة العربية ، وتعزى الى هذه الفترة نهضة التجديد بين مسلمى الصين الغربية ، وهى كسائر النهضات مقبولة عند فريق ، مستنكرة او مشتبه فيها بين فريق المحافظين على كل قديم

ولا يزال مسلمو الصين فى غمرة من جرائر الظلم الذى حاق بهم على عهد الاسرة المنشورية ، ولم يرتفع عنهم كثيرا بعد قيام الجمهورية ، ولكنهم على أية حال كانوا فى مطلع القرن العشرين قوة لا تهمل فى حساب احد يعنيه امر الصين كلها ، ولهذا جعلتهم الجمهورية عنصرا من العناصر الخمسة التى يقوم عليها بناء النظام الجديد

أهم أخرى

تلك في العالم الاسلامي اكبر الجماعات التي بقيت الى ختام القرن التاسع عشر في حكم غيرها ، وهي جماعات كبيرة حتى بالقياس الى اكبر الجماعات من حولها ، اذ ليست الصين مثلا على عقيدة واحدة بملايينها الاربعمائة ، ففيها الطاويون والبوذيون وأتباع كنفيشيوس وطوائف شتى لا تقيم شعائرها في بيعة واحدة وقد تواترت الأدلة على الرغبة في الاقلال من عدد المسلمين بين هؤلاء في جميع الاحصاءات الحكومية وغير الحكومية ، ولم تتبدل هذه الرغبة بعد اعلان الجمهورية ، فقال دكتور ليان هو فر معتمدا على مراجع الحكومة العامة أن عددهم يتراوح بين سبعة ملايين وعشرة ، وكشف الاستاذ أحمد على الباكستاني عن خطأ هذا الاحصاء معتمدا على عدة مراجع منها دليل الصين الرسمي في سنة ١٩٤٣ ، فان تعداد سنكيانج وحدها في ذلك الدليل ٢٠.٢٠٠.٣٦٠ و تعداد قانصوه ٦٧.٤٦٥.٢٥٠ و تعداد شنسي ١١٧.٩٩٩.٩٠٠ وكلها بلاد اسلامية أكثر من فيها مسلمون ، وهذا عدا مسلمي يونان وشنغهاي و تنغسيه وهم هناك قلة كبيرة ، وعدا المسلمين بوادي اليانجتسي وقد ذكر ولز وليامس احصاءهم في كتابه الذي ظهر قبل خمسين سنة (١٨٨٣) فقدرهم بناء على ذلك الاحصاء بعشرة ملايين ، ولا حاجة الى شواهد أخرى أو الى استقصاء سائر الاقاليم لاثبات تلك الرغبة في الاقلال من عدد المسلمين الصينيين ، فقد يرى بعضهم أن الجماعة الاسلامية التي كان ولا الامر الصينيون يودون الاكبار

من شأنها لم تذكر كل الحقيقة حين كتبت - باذن ولاة الامور -
انها تمثل خمسين مليوناً من الصينيين

ووفرة العدد هنا لها شأنها الخطير في قارة كالقارة الاسيوية
يتقدم اعتبار العدد فيها اليوم على كل اعتبار

وهناك شأن آخر لا بد من الالتفات اليه في كل كلام يتعلق
بالجغرافية الاسلامية ، فلا يخفى ان البلاد الاسلامية تبتمد
عن شواطئ البحار بتدبير او بغير تدبير ، وذلك مصدر ضعف
لها في بعض المواقع ومصدر قوة لها في المواقع الاخرى ،
فالمسلمون في وسط آسيا قوة لانهم هناك ميزان القارة الداخلية
لا يتم امر من الامور في سياسة العالم التي ترتبط بتلك المواقع
ان لم يحسب فيه حسابهم قبل كل حساب ، ولكنهم في الجزر
الهندية الشرقية يملكون الشواطئ فلا يهمل شأنهم في كل
سياسة عالمية لها علاقة بحرية ، وهم في الباكستان شرقاً وغرباً
يتوسطون البر والبحر ، فلا تنفصل سياسة القارة الاسيوية
بعد النظر الى هذه الاعتبارات كافة عن سياسة الاسلام

وتعاصر هذه الجماعات الاسلامية الاسيوية امم شتى
لا تساويها في العدد ولكنها ملحوظة المكانة والمكان لغير ذلك من
الاعتبارات ، وفي طليعتها وادي النيل والبلاد العربية

وادی النيل

فوادى النيل قضى القرن التاسع عشر كله - اسما ورسمًا - في حوزة الدولة العثمانية ، ولكنه كان قبل قيام الدولة العثمانية وبعد انحسار ملكها محور العالم الاسلامى ، لجملة اسباب تدور على الدين تارة وعلى السياسة أو الثقافة تارة اخرى

فقد كانت القاهرة تحسب عاصمة الاسلام ، وكان ملوك الافرنج يخاطبون سلطانها باسم أمير الاسلام اذا انتحل أحدهم لنفسه لقب الامارة على المسيحيين ، وكانت مصر طليعة الجيوش الاسلامية في مقاومة الصليبيين وبيت القدس تابع لها في أيام تلك الحروب ، ومضى زمن على العالم الاسلامى في القرون الوسطى وهو لايعرف قبلة لعلوم الدين اولى بالرحلة اليها من الجامع الازهر ، وعظمت مكانتها امام الغرب بعد الحروب الصليبية في عهد الاستعمار وفي عهد المسألة الشرقية ، فكان الفيلسوف الالماني « لينتز » يغرى لويس الرابع عشر بفتح مصر للقضاء على المستعمرات الهولندية ويقول له : « ان هولندة لا تجسر حينئذ على معاداته لانها تجر عليها غضب العالم المسيحى اذا حاربتة وهو مشغول بفتح معقل الاسلام » ، ولما فكرت الدول في أمر قناة السويس كان المركيز دارجنسون Dargenson يروج للمشروع من الناحية الدينية فيقول :

« انه فتح صليبي لجميع المسيحيين »

وشاءت الحوادث ، كما شاء حكم الموقع ، أن تسبق مصر بلاد العالم الاسلامى الى الحضارة الحديثة ، لانها تنبعت الى مزايا

هذه النهضة عند وصول الحملة الفرنسية اليها بقيادة نابليون بونابرت قبيل ابتداء القرن التاسع عشر ، وكانت في حقيقتها حملتين : حملة عسكرية وحملة علمية يشترك فيها جلة العلماء من المختصين الثقات في كل علم حديث

ويعتبر القرن التاسع عشر في مصر بمثابة الازمة النفسية التي تصاحب سن الرشد في بواكير الشباب ، فاعتلجت فيها النفس المصرية بتجارب النكسة والتقدم وعوامل الاسر والحرية، واستهلت أمة مضر سنواته الاولى بحركة من حركات الاستقلال تمثلت في اجماع القادة على عزل الوالى العثمانى وترشيح وال يختارونه ليخلفه على شرطهم من الاستقامة في الحكم والتعفف عن الحرمات والاموال ، فتولى الامر « محمد على » ولجأ الى النظم الحديثة في ادارة الدولة وتثمين الارض والانتفاع بمساء النيل ، ولولا اسرافه في العدة لتوسيع ملكه لادركت البلاد أضعاف ما ادركته من المنعة والتقدم بعد القضاء على عصابة المالك

وقد استفادت مصر في هذا القرن من الحضارة الاوربية واوشكت أن تخلص لها فوائدها لولا بقايا الامتيازات الاجنبية وأثقال الديون وشطط الولاة وعجزهم من أيام عباس الاول الى أيام توفيق بن اسماعيل ، وفي عهد هذا تفاقمت بواعث السخط والنقمة فثارت الامة تطلب الاصلاح وتعالج أن تفك قيودها بتقييد سلطان الولاة ، فتدعرت بريطانيا العظمى باحتلال الامن في مصر لضرب الاسكندرية واحتلال القطر كله ، ولم تنس أن تثير العصبية والطمع في الغرب بدعوى حماية المسيحيين وحراسة حقوق أصحاب الديون ، ولم يحدث قط أن مسألة الديون سوغت احتلال شبر من الارض في أوربا أو أن اضطهاد المخالفين في الدين ضيع استقلال أمة من غير الشرقيين

وكان القرن التاسع عشر كما أسلفنا بمثابة الازمة النفسية

التي تصاحب سن الرشد في بواكير الشباب ، فحدثت فيه نكبة الاحتلال الاجنبى وحدثت فيه قبل الاحتلال وبعده نهضة الحرية في وجه الدولة صاحبة السيادة وهي الدولة العثمانية ، وفي وجه حكام مصر وهم سلالة محمد على ، وفي وجه السيطرة الفعلية وهي سيطرة المستعمرين ، ويحسن بالمؤرخ الذي يعنيه الاستقصاء في النهضات الفكرية على الخصوص ان يقرر في ثقة ويقين أن العصبية العمياء لم تكن قط عاملا فعلا في حوادث مصر الهامة . فقد كان شعور مصر اسلاميا كلما أحس العصبية من الغرب في عدائه للأمم الاسلامية . ولكن الهتاف بالسخط على « العثماني » كان على لسان الخاصة والعامة ، يدل عليه ان جماهير العامة كانت تنادي في اواخر أيام المماليك مستنجدة بالتولي لهلاك العثماني ، وكان هتافها الذي لا يعقل ان يصدر من غير العامة « يامتولى يامتولى . تخرب بيت العثماني » . . وبعضهم يتعلم ويتخرج فيستبدل المتجلى بالتولي ، وهو وما جرى مجراه مسطور في تواريخ مصر بأقلام المصريين والاجانب ، وأقلام المسلمين وغير المسلمين

أما الخاصة فمنهم الحزب السياسى الذى نادى « بمصر للمصريين » قبل نهاية القرن التاسع عشر بعشرين سنة ، وعلى رأسهم الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده أستاذ رجال الدين من المصلحين ، وأحد أصدقائه وتلاميذه سعد زغلول قائد الثورة بعد الحرب العالمية الاولى وكان وكيلًا للهيئة النيابية التي تألقت في أوائل القرن العشرين باسم « الجمعية التشريعية » واثبتت أن الجماعات النيابية تنال منزلتها ومقدرتها على قيادة الأمم بفضل من فيها من الأعضاء لا بمقدار مالها من الحقوق في النصوص والاحكام

البلاد العربية

ومن تاريخ الاصلاح الاسلامى فى جزيرة العرب يبدو أن الاصلاح فى العالم الاسلامى يخلق حيث توافرت دواعيه على حسب البيئة ، فهو سابق فى المجتمعات التى تدور فيها المعيشة على بساطة البداوة وما شابهها ، وهو كذلك سابق فى المجتمعات الحضرية التى تشعبت جوانبها وتركبت عناصرها فلا يصلح لها ما يصلح للبداوة ، وكل ما هنالك أن الاصلاح فيها يتأخر به الزمن لانه يستلزم من الدواعى العلمية والاجتماعية ما لم يكن لزاما فى البيئات البدوية

فالنهضة فى مصر بدأت عند أوائل القرن التاسع عشر . ولكنها بدأت فى الجزيرة العربية قبل ذلك بنحو ستين سنة بالدعوة الوهابية التى تنسب الى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وبدأت نحو هذا الوقت فى اليمن بدعوة الامام الشوكانى صاحب كتاب « نيل الاوطار » ، وكلاهما ينادى بالاصلاح على نهج واحد : وهو العود الى السنن القديم ورفض البدع والمستحدثات فى غير هواة ، وانما تسامع الناس بحركة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب وظلت الدعوة الشوكانية مقصورة على قراءة كتب الفقه والحديث لان الوهابيين هدموا القباب والاضرحة فى الحجاز واصطدموا بجنود الدولة العثمانية فى ابان حربها مع انجلترا الاوربية التى اتفقت على تقسيمها ، ومثل هذا الاصطدام قد اودى بدولة على بك الكبير فى مصر فانتفض عليه اعدائه

وتمكن منه حساده بعد محالفته لروسيا في حرب الخلافة
الاسلامية

ولم تذهب صيحة ابن عبد الوهاب عبثا في الجزيرة العربية
ولا في أرجاء العالم الاسلامي من مشرقه الى مغربه ، فقد تبعه
كثير من الحجاج وزوار الحجاز وسرت تعاليمه الى الهند والعراق
والسودان وغيرها من الاقطار النائية ، واعجب المسلمين أن
سمعوا أن علة الهزائم التي تعاقبت عليهم انما هي في ترك الدين
لا في الدين نفسه ، وأنهم خلقاء أن يستجدوا مافاتهم من القوة
والمنعة باجتناّب البدع والعودة الى دين السلف الصالح في
جوهره ولبابه

أما سياسة الاستعمار فلم يفتها في هذه المرحلة أن تستغل
التمرد على الدولة العثمانية كما تستغل التنازع بين أمراء
الجزيرة في داخلها وعلى شواطئها . فسارعت بريطانيا العظمى
الى التعاقد مع أمراء الشواطئ على نوع من الحماية الخفية ،
وأحكمت عقودها هذه بعد فتح قناة السويس ومد السكك
الحديدية الى العراق ، فلم ينقض القرن التاسع عشر حتى كانت
قد أحاطت الجزيرة العربية بحلقات من هذه الامارات التي
تخضع لها وتعمل لها في السر مالا تستطيعه في العلانية



الهلال الخصيب

والهلال الخصيب وسط بين مصر والجزيرة العربية في نهضة الإصلاح الديني ومجاعة الحضارة الحديثة ، فالمسلمون في بلاد الهلال الخصيب يشعرون بالحاجة الى التغيير ولكنهم لا يلبتمسونه في بساطة القديم ولا تتوافر لهم الوسائل لالتماسه في العلوم الحديثة ، وتقيدت أحوالهم بأحوال الدولة التركية فتعلم منهم من تعلم في المدارس التركية وقدم بعضهم الى الجامع الأزهر بمصر أو تلقى العلم على مناهجه من علماء بلده

ولما تسابقت الدول الغربية الى فتح المدارس في لبنان وسورية لم يقبل عليها المسلمون لاعتقادهم أن التعليم فيها وسيلة للتبشير ، وهو أمر لا يخفيه رؤساء تلك المدارس بعد انقضاء جيلين على افتتاحها ، ومنهم رئيس جامعة كبيرة يقول : « ان التعليم خير الوسائل في التبشير والتنصير »

ومن خدام الاستعمار طائفة تمهد له بخدمة اللغة العربية تشجيعا لثورة العرب على دولة الخلافة ، واحتياالا على نفث بعض المغامز في طيات الكتب التي تنشرها ، وان خدام اللغة هؤلاء لشاهد من شواهد شتى على أن العلم لا يخلو من الخير وان ساءت النية عند ناشره

وجملة الحال في بلاد الهلال الخصيب عند أواخر القرن التاسع عشر أنها تتقدم في نهضة اسلامية تتوسط بين منهج محمد بن عبد الوهاب ومنهج محمد عبده ، وان هذه النهضة

يمتزج فيها طلب الحرية وطلب التجديد كأنها جيش ذو جناحين
يذهب الجناح السياسي منهما بعيداً ويصطنع الجناح الديني
شيئاً من الأناة والمحافظة

وفي داخل هذا الهلال الخصيب فرق من المسلمين كالمناولة
والدروز يحسبون من غلاة الشيعة ويذهبون الى اقوال في
مسألة الحلول ومسألة الامامة يخالفهم فيها السنيون والشيعة
المعتدلون . . . وتكاد كل فرقة منهما أن تنطوي على عزلتها ،
الا أفراداً منهم يقصدون الى معاهد العلم الحديث في لبنان ومصر
والديار الاوربية



افريقية الشمالية

اما في افريقية الشمالية فقد احتلت فرنسا الجزائر في سنة ١٨٣٠ واحتلت تونس في سنة ١٨٨١ وسلكت في كل منهما السياسة التي تبصر من لا يبصر بأساليب الاستعمار سواء منه ما ينتحل المبادئ الديمقراطية أو ينتحل الدعوة الدينية

فنايليون الثالث قد منح المسلمين في الجزائر حقوقا كحقوق المواطنة ، وهو عاهل مطلق اليدين ... ثم جاء غمبتا داعية الحرية فحرم المسلمين هذه الحقوق وضاعفها لليهود

وحكومة فرنسا وهي تنادى باعتزالها للدين تضع في « الميزانية » التي عجزت مواردها عن مصروفاتها بابا واسعا لمعونة المبشرين في افريقية الشمالية ، ويعلن وزيرها في البرلمان أن « السياسة اللادينية » تقف عند حدود فرنسا ولا تتخطاها الى المستعمرات

وقد ابتدأ القرن العشرون في الجزائر وتونس بنهضة من نهضات التقدم يستعجلها المجددون ويستمهلهما المحافظون ، ولم يبق من المحافظين في نهاية القرن التاسع عشر من يحرم الدستور لانه بدعة مستمدة من الشرائع الغربية ، ولكن أنصار القديم مع هذا يتخرجون مما يتوسع فيه أنصار التجديد

وتم احتلال المستعمرين لافريقية الشمالية باحتلال طرابلس في سنة ١٩١١ فكانت الغنيمة هذه المرة من نصيب الايطاليين ،

وسمعت في ايطاليا قبيل الزحف على طرابلس أناشيد
« الصليبية » في نغم جديد ، ولكنها سمعت أيضا بعد ذلك
بزهاء ثلاثين سنة تمجيدا لفزوة الحبشة وابتهاجا بتخليص
أثيوبية القديمة من « الهمج » الذين دنسوا دين المسيح !



مسلمو الحبشة

ومن أكبر المجاميع الاسلامية في القارة الافريقية مسلمو الحبشة وعدتهم مع المسلمين في الصومال واريترية لاتقل عن ستة ملايين

وتجمع التواريخ التي كتبها الشرقيون والغربيون عن الحبشة في القرن التاسع عشر على سوء حالهم واضطهادهم ، وقد أمر أحد ملوكهم يوحنا بتنصير سكان الحبشة جميعا ومنهم المسلمون ، وجاء في إحدى الرسائل التي كتبها جوردون الى أخته « أن يوحنا - ويا للعجب - يشبهني تعصبا للدين وله رسالة سينجزها ، وهي تنصير جميع المسلمين » (١)

وقد أشار ترمينغهام في كتابه عن « الاسلام في الحبشة » الى أعمال يوحنا هذا فقال في صفحة ١٢٢ « أن بعض المسلمين تحولوا الى بلاد أقالما أو المنخفضات الاسلامية أو البلاد الوثنية حيث ينشرون دينهم ، وبعضهم تنصر ولكنه تنصر لا يعنى لديهم الا القليل ، اذ كان مقصورا على التعميد وأداء العشر ، وقد قال الكاردينال ماسيا Mossicia أنه رأى بعينه أناسا منهم يخرجون من الكنيسة التي عمدوا فيها الى المسجد ليزيلوا أثر العمادة على يد الامام » (٢)

(١) صفحة ١٥٥ من رسائل جوردون التي طبعت سنة ١٩٠٢ .

(٢) Islam in Ethiopia by Trimmingham

وبعد أن قتل هذا الملك في حربه مع الدراويش حسنت
أحوال المسلمين بعض الشيء ولكنهم تعرضوا لمظالم شتى
يذكرها السياح من الأوروبيين كما ذكرها السياح الشرقيون في
كتب الرحلات الحديثة



السودان

ونريد بالسودان هنا جملة الاقطار الافريقية التى يقطنها الزنوج . . . وفيه مسلمون فى جماعات قليلة أو متفرقون بين بواديه وقراه

وموقف الحكومات الاجنبية فى اقطار هذا السودان جميعا هو موقف المقاومة كما يؤخذ من تقارير المبشرين والسياح من الاوربيين ، وقد تمنع هذه الحكومات رسالات التبشير من دعوة المسلمين الى النصرانية ولكنها تيسر لهم عملهم كل التيسير فى بلاد الوثنيين ، فتبيح لهم السفر الى أقصى الجهات وتحرمه على الجلابة والفقهاء وأصحاب الخلوات (١)

وصرح القس شو فى سنة ١٩٠٩ « بأن قبائل الوثنيين مالم تدخل فى المذهب الانجيلي قريبا فهى حتما صائرة الى الاسلام »

وعقب ترمفهام على هذا فى كتابه عن محاولة المسيحية مع الاسلام فى السودان فقال فى صفحة ٣٨ « ولكن هذا الخطر قد زال الآن »

ويفهم من كتاب السودان المتغير The changing Sudan تأليف ولسون كاش Cash أنه مامن قائد أو رائد أرسلته مصر الى أعلى النيل فى القرن التاسع عشر بايعاز من الدول الا كان من رواد التبشير على وجه من الوجوه

(١) صفحة ٢٤٨ من كتاب « الاسلام فى السودان »

التبشير على الاجمال

وبعد هذه الخلاصة العاجلة عن موقف الاسلام من الاستعمار في القرن التاسع عشر على الخصوص - نوجز الموقف الذي يقفه منه جماعات التبشير بعد تجربة قرن كامل في مختلف الاقطار

فالتقارير التي كتبها رسل التبشير مجمعة على صعوبة تحويل المسلم عن معتقده الى دين آخر ، وأكثر هؤلاء المبشرين تابعون لكنيسة رومة أو للكنيسة الانجيلية ، ومنهم من يجتهد في تحويل المسيحيين الشرقيين الى مذهبه لان التحول من مذهب الى مذهب في ديانة واحدة أسير من التحول من ديانة الى أخرى

وربما شجر النزاع بين المبشرين من المذهبيين في أواسط أفريقية وفي الشرق الاقصى من آسيا ، وربما انتهى أمرهم جميعا بين المسلمين الى الكف عن الدعوة والاكتفاء بالقُدوة والتعليم على أمل النجاح بهما حيث أخفقت الدعوة الصريحة كما ذكر داعيتهم الكبير ترمغهام في كتابه عن محاولة المسيحية مع الاسلام في السودان

وجملة الموقف الآن ان جماعات التبشير قد فرغت أو كادت من اتخاذ الاسلام هدفا لدعوة التنصير ، وهي تنظر اليه الآن نظرتها الى منافس خطير في بلاد الوثنيين من الاسيويين والافريقيين ، واذا أمنت خطره فقد تستريح اليه للتعاون على مقاومة الدعوة الى المذاهب الهدامة أو مذاهب الاتحاد ، وبخاصة

في البلاد التي تصطدم لديها الكتلتان الشرقية والغربية
ويبدو لنا أن هذه الجماعات في الشرق إنما تطيل رسالتها
لاستبقاء الاتاوات المخصصة لها في بلادها ، ولو كان بقاؤها
على قدر نجاحها في التبشير لعدلت عنه منذ عهد بعيد

ولكن هذه الجماعات التي تمدها الاتاوات والحبوس من بلادها
تنخفي بغرضها المدخول وراء كل غرض ظاهر من التعليم أو
التطبيب أو الاحسان . ولها أساليب ملتوية لمحاولة التأثير ،
نذكر منها أسلوبا صغيرا اختبره كاتب هذه السطور في تشجيع
بعض ذوى الأقلام وغمط الآخرين ممن يحذرون خدمتهم
الثقافية ، فلا يخفى على أحد في الشرق العربي أن كل ترتيب
للكتاب العشرين الذين تشيع كتبهم بين قراء العربية لابد أن
يرد فيه اسم كاتب هذه السطور في آخر القائمة على الأقل
أن لم يرد في أولها ، ولكن إحدى هذه الجماعات زعمت أنها
تعنى بترتيب الكتب العربية التي تقرا في الشرق فلم يأت بينها
ذكر لكتاب واحد الفناه ، ولم تصنع شيئا بهذا السفساف الا
ان تدل على النية المدخولة والتواء الاسلوب . . . ومن دلالة
كهذه يظهر ماوراء هذه الجماعات من الغرض ، وان ابتعدت
منه في الظاهر غاية الابتعاد



الزعماء ونهضة الإصلاح

الدعوات ونهضات الإصلاح

أتى على الامم الإسلامية حين من الدهر لم تكن شيئاً
مذكوراً

حرمت العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية ،
وهى عدة الامم فى تنازع البقاء

والويل للامم التى تحرم هذه العدة فى الحالتين
الويل لها اذا احست نقصها ، والويل لها اذا غفلت عنه
ولم تظن لمصائبها

فان احساسها بالنقص فى جميع هذه العدد يذلها ويثسها
ويهون عليها الخضوع لغيرها والاستسلام لسوء مصيرها

اما الغفلة عن النقص فهى أشد عليها من الاحساس به ان
كانت هناك حالة أشد من حرمانها العلم والثروة والسلاح
والحرية والمكانة السياسية ، لانها تزيد عليها حرمانا آخر
لا تزال له بقية فيها ، وهو الحرمان من محاولة التبديل ، ان
كان للمحاولة سبيل

ويحدث فى بعض هذه الاحوال أن تتماسك الامة بعض
التماسك لاعتصامها بكبرياء الجنس أو بكبرياء الدم والسلالة ،
وهى كبرياء تخامر النفوس بغير حجة وتداخل الجاهل مداخله
العارف أو أشد وأقوى

فالجنس الاصغر ينظر الى الامم الاخرى كأنها الغريب المتطفل
على العالم لان أوطانها فى عرفها هى مركز العالم ومحوره ، فلا

محل في خارجه لغير المتطفلين المشردين
والجنس الاسود يعيب على جميع الامم انها لا تأخذ بعادته
ومراسمه ، واليونان الاقدمون كانوا يحسبون الناس ماعداهم في
زمرة واحدة هي زمرة البرابرة ، والمصريون يحسبون الناس
واليونان منهم أجلافا مستوحشين ، والعرب يسمون غيرهم
عجما ، والعجم يأنفون من عيشة الصحراء كأنها مسبة لمن
يقبلها ومسبة لمن يفضلها على غيرها

وكان للأمم الاسلامية أن تلوذ بهذه الكبرياء لولا أنها تنتمى
الى جميع الاجناس ، وقد تنتسب في رقعة واحدة الى البيض
والسود والصفير كما تنتسب الى الآريين والساميين والهاميين ،
وأعلم من فيها يعلم أنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى
على حبشى الا بالتقوى

ففى هذه المحنة التى مرت بالامم الاسلامية فى عصر
الاستعمار لم تكن لها غير عصمة واحدة : وهى عصمة الدين
وعصمها لانها لم تهلك هلاك الامم التى حرمت مقومات الحياة
وعدد الكفاح فاستسلمت ويُسئت وأيقنت أنها أقل من سائر
الامم فى جميع الصفات وأنها محتاجة من تلك الامم الى
كل شئ

وعصمها لانها لم تهلك هلاك الامم التى تجهل حاجتها. وتفغل
عن نقصها ، لان نزولها منزلة العبودية كاف وحده لتعريفها
بتبدل حالها وقبولها ما ليس ينبغى أن تقبله وتستقر عليه

بقى لها شئ بوحى اليها أنها ليست ضائعة محرومة من كل
شئ بعد حرمانها العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة
السياسية

ولم يكن هذا الشئ كبرياء الجنس العمياء أو كبرياء الحيوانية
فى الانسان ، بل كان شيئاً يليق بالانسان لانه منوط بأشرف
مزياه وهى مزية الضمير والوجدان

بقى لها الايمان بدينها
بقى لها الايمان بانها في حالة لن تدوم ، وانها قمينة ان
تغيرها لو غيرت ما بنفسها ، وأن الله يريد منها هذا التغيير
ويعينها عليه

ولم يزل الاسلام منذ كان يعلم المسلم أنه مطالب بعلم الدين
وعلم الدنيا ، وأن نبي الاسلام — فضلا عما هو دونه — قد
يقول لمن يهديهم أنكم أعلم بأمور دنياكم

وانحلت المفضلة الكبرى على هذه الصورة التي لا صعوبة
فيها على النفس المسلمة ، وفي وسع الدول المستعمرة أن
تتغلب بسلاتها ، وفي وسع الامم الاسلامية أن تدفعها بمثل
ذلك السلاح اذا ملكته ، وعليها أن تملكه بأمر دينها

هذه العصمة هي سر العقيدة الوافية الذي تلوذ به حين
تخلوها كل عصمة ، وهو قيمة حقيقية لا تفرط فيها أمة
متى وجدتها ولا يكون التفريط فيها الا علامة على الوهن
والانحلال

ولم تشعر الامم الاسلامية بمثل هذا الشعور قبل عصر
الاستعمار

لم تشعر به في عهد الحروب الصليبية لانها خرجت منها
وهي مالكة لبلادها منفردة بانتصارها وارتداد المغيرين عليها

ولم يكن ثمة فارق في عدد القتال بينها وبين الصليبيين
فيدخل في روعها أنها مطابقة باقتباسه مفقورة اليه

ولم يكن في أحوال الصليبيين ما تغيظهم عليه ، بل كان
الاكثرون منهم على حالة يترفع عنها بنو الحضارة ويحسبونونها من
التخلف والهمجية

اما صدمة الاستعمار فلم تكن من هذا القبيل ، ولم تكن
بالصدمة العابرة التي تمر في ساعتها ولا تترك بعدها عبرة
للمعتبر ولا أثرا للماتر ، بل كانت هي الصدمة الماثلة امام كل

نظر ، الملحة في كل حين ، المتجددة في كل جهة ، المعاودة على نحو واحد في جميع الاقطار وعلى اختلاف التجارب والاحداث وقد تقدم في خلاصة احداث القرن التاسع عشر ان هزائم تركيا وايران ومراكيش ومصر كانت هي نقطة التحول في تواريخ تلك الأمم ، وأن الجامدين على القديم لم يؤمنوا بضرورة التحول الا بعد هزيمة من هذه الهزائم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم

وسيتبين من « رد الفعل » الذي أعقب هذه الهزائم أن « العالم الاسلامي » لم يزل بنية حية تستجيب للمؤثرات وتستبقي منها ماصح وأجدي

وتلك هي العلامة الصادقة على كل بنية حية

علامتها أن تستجيب للمؤثرات وأن تعالجها بما يصلح ويجدي ، فلا يبقى في البنية عارض من حقه أن يطرد وينفى

ان رد الفعل الذي أعقب الهزائم أمام الاستعمار قد تنوع بكل نوع يخطر على البال ، فكانت منه الدعوة الى معاودة القديم على قدمه ، وكانت منه الدعوة الى البدعة التي لم تسبقها سابقة ، وكانت منه الدعوة الى حفظ الاصول واقتباس الجديد على توافق واتصال . وكانت منه الدعوة الغالية والدعوة المعتدلة ، فلم تستبق البنية الحية من جميع هذا الا ما هو جدير بالبقاء ، ودلت البنية الحية بذلك على نصيبها من الحياة

وسنعلم الاصلح من هذه الدعوات في خلاصة سريعة لما ارادته ولما حققته ولما تركته بعدها غير قابل للتحقيق أو قابلا له على مدى من الزمن قد يقصر وقد يطول

الدعوة الوهابية

كان أول هذه الدعوات في تاريخ ظهورها دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب الذي ولد في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة ببلد العيينة من نجد في جزيرة العرب

وسبق هذه الدعوة في تاريخها يرجع الى بساطة المجتمع الذي ظهرت فيه والى ابتعاده في داخل شبه الجزيرة عن عوائق الحياة العصرية بين الامم الاسلامية الاخرى التي تختلط فيها عوامل السياسة والاجتماع

وقد ترجم له المولى محمود الالوسي صاحب تفسير روح المعاني وهو بعض مرديه فقال انه « ابن سليمان بن علي ابن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن بريد ابن مشرف بن عمر بن معضاض بن ريس بن زاخر بن محمد ابن علي بن وهيب التميمي النجدي صاحب الدعوة المشهورة »

قال : « وقد نشأ الشيخ محمد في بلد العيينة من بلاد نجد في حجر ابيه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان القاضي في بلد العيينة في زمن امارة عبد الله بن محمد بن حمد بن عبد الله ابن معمر المشهور صاحب العيينة التي تزخرت في أيامه ، وذلك قبل انتقال الشيخ عبد الوهاب الى بلد حريملة من بلاد نجد . فقرأ الشيخ محمد على ابيه الفقه على مذهب الامام احمد بن حنبل ، وكان الشيخ محمد في صغره كثير المطالعة لكتب التفسير والحديث والعقائد ، فصار ينكر على أهل نجد كثيراً من الامور فلم يسعفه على ذلك أحد وان استحسن

انكاره بعض الناس ، فسافر من بلده العيينة الى حج بيت الله الحرام فلما قضى نسكه صار الى المدينة فأخذ فيها عن الشيخ العالم عبد الله بن ابراهيم بن سيف من آل سيف رؤساء بلد الجمعة المعروفة في ناحية سدير من نجد ، والشيخ عبد الله هو والد الشيخ ابراهيم مصنف كتاب « العذب الفائض في علم الفرائض »

وروى الالوسي في الهامش أن محمد بن عبد الوهاب كان عنده يوما فقال له : تريد أن أريك سلاحا أعددت له للمجعة ؟ قال محمد بن عبد الوهاب : نعم . قال : فأدخله منزلا فيه كتب كثيرة . فقال : هذا الذي أعددت لها !

ثم استطرد الالوسي فقال أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنكر استغاثة الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم عند قبره ، ثم رحل الى نجد ثم الى البصرة يريد الشام ، فلما ورد البصرة أقام فيها مدة وأخذ على العالم الشيخ محمد المجموعى من أعلى المجموعة محلة من محال البصرة ، فأنكر أيضا أشياء كثيرة على أهل البصرة فأحس الناس به فأذوه وأخرجوه وقت الهجرة ، ولحق بعض الأذى بالشيخ محمد المجموعى أيضا لمؤاناته للشيخ محمد . فلما خرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب هاربا من البصرة وتوسط الطريق فيما بين البصرة وبلد الزبير في وقت الصيف في شدة الحر وكان ماشيا على رجله كاد يهلك من شدة العطش فوافاه رجل من أهل بلد الزبير يسمى أبا حميدان ووجده من أهل العلم فسقاه الماء وحمله على حماره حتى أوصله الى بلد الزبير . ثم أن الشيخ محمدا أراد السفر الى الشام فضاق زاده فأنثنى عزمه عن الشام فقصد الاحساء فنزل بها عند الشيخ العالم عبد الله بن محمد بن عبد اللطيف الشافعى الاحسائى ثم خرج من الاحساء وقصد بلد حريملة من نجد ، وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب قد انتقل اليها من

بلد العيينة سنة تسع وثلاثين ومائة والف ، بعد وفاة عبد الله
ابن معمر صاحب العيينة في الوباء الذي وقع بها فافناها ،
وتولى فيها بعده ابن ابنه محمد بن حمد الملقب بخرفاش ،
فوقع بينه وبين الشيخ عبد الوهاب منازعة فعزله عن قضاء
العيينة وجعل مكانه أحمد بن عبد الله بن عبد الوهاب بن
عبد الله النجدي قاضيا ، فانتقل الشيخ عبد الله الى بلد
حريملة ، ولما وصل الشيخ محمد الى بلد حريملة لازم أباه
وقرأ عليه وأظهر الإنكار على أهل نجد في عقائدهم فوقع بينه
وبين أبيه منازعة وجدال وكذلك وقع بينه وبين الناس في بلد
حريملة جدال كثير فأقام على ذلك مدة سنتين حتى توفي أبوه
الشيخ عبد الوهاب سنة ثلاث وخمسين ومائة والف

ثم أعلن الشيخ محمد بالدعوة والإنكار على الناس ، وتبعه
أناس من أهل حريملة واشتهر بذلك ، وكان رؤساء بلد حريملة
قبيلتين أصلهما قبيلة واحدة وكل منهما يدعى الرئاسة ، وليس
في البلد رئيس يحكم على الجميع ، وكان لأحدى القبيلتين عبيد
يقال لهم الحميان وهم أهل الفساد ، فأراد الشيخ محمد أن
يمنعهم من فسقهم وفجورهم ، وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن
المنكر ، فهم العبيد ليلا يقتل الشيخ محمد خفية ، فلما
تسوروا عليه من وراء الجدار علم بهم بعض الناس فصاحوا
بهم ، فانتقل الشيخ محمد من بلد حريملة الى العيينة، ورئيسها
يومئذ عثمان بن حمد بن معمر ، فتلقيه بالقبول وأكرمه وحاول
نصرته وقال لعثمان : انى أرجو ان أنت قمت بنصر (لا اله الا
الله) ان يظهر لك الله وتملك نجدا وأمرابها ، فساعده عثمان
فأعلن الشيخ محمد بالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
وشدد في التكرير على الناس فتبعه بعض أهل العيينة وقطع
أشجارا كانت تعظم في تلك النواحي وهدم قبة قبر زيد
ابن الخطاب رضي الله عنه عند الجبيلة فعظم أمره فبلغ خبره

الى سليمان بن محمد بن عزيز الحميدى صاحب الاحساء
والقطيف وما حوله من العربان ، فأرسل سليمان كتابا الى
عثمان وكتب فيه : ان المطوع الذى عندك قد فعل ما فعل وقال
ما قال فاذا وصلت كتابى فاقتله ، فان لم تقتله قطعنا خراجك
الذى عندنا فى الاحساء وكان خراجه ألفا ومائتين ذهباً وما يتبعها
من طعام وكسوة

فلما ورد الكتاب الى عثمان لم تسعه مخالفته فأرسل الى
الشيخ محمد وأخبره بكتاب سليمان وقال له : لا طاقة لنا
بحرب سليمان ، فقال الشيخ محمد : انك ان نصرتنى ملكت
نجدا ، فأعرض عنه عثمان . وأرسل اليه ثانيا أن سليمان قد
أمرنا بقتلك فى بلدنا ، فشأنك ونفسك واخل بلادنا ، وأمر
فارسا يقال له الفريد الظفيرى بإخراجه من البلد ، فركب
الفارس جواده والشيخ يمشى على رجليه أمامه وليس معه الا
المروحة وذلك فى أشد الحر من الصيف ، فهم الفارس بقتله فى
الطريق ، فكف الله يده عنه لما أصابه من الرعب والخوف العظيم
وخلى سبيل الشيخ . . . فصار الشيخ الى الدرعية ، وكان
ذلك سنة ستين بعد المائة والألف ، ووصل اليها وقت العصر
فنزل فى بيت عبد الله بن سويلم العرينى ، فلما دخل عليه
ضاقته به داره وخاف على نفسه من محمد بن سعود صاحب
الدرعية فوعظه الشيخ وسكن جائشه وروعه ، وقال : سيجعل
الله لنا ولك فرجا ، فاستقر ، فأراد أن يخبر محمد بن سعود
بحاله ويرغبه فى نصرته ، فالتجأ الى أخويه مشارى وثنيان
ولدى سعود وزوجته موخى بنت أبى وحطان من آل كثير ،
وكانت ذات عقل وفهم ، فأخبروها بحال الشيخ وصفته من
الحث على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فقذف الله محبة
الشيخ فى قلبها فأخبرت زوجها محمد بن سعود بحاله ، وقالت
له ان هذا الرجل اتى اليك وهو غنيمة ساقها الله تعالى اليك ،

فاكرمه وعظمه واغتنم نصرته ، فقبل قولها والقي الله محبته في قلبه ، ورجبوا محمد بن سعود في زيارته لعل ذلك يكون سببا لتعظيم الناس له واكرامه . فسار محمد بن سعود اليه فلما دخل عليه في بيت ابن سويلم رحب به وقال : أبشر بالخير والعزة والمنعة ، فقال له الشيخ : وأنا أبشرك بالعز والتمكين والغلبة على جميع بلاد نجد . وهذه كلمة (لا اله الا الله) من تمسك بها وعمل بها ونصرها ملك بها البلاد والعباد ، وهي كلمة التوحيد وأول مادعت اليه الرسل من أولهم الى آخرهم

واستطرد الالوسي الى تعاهد الرجلين على النصره اذ قال الشيخ للامير : « أما الاولى فامدد يدك فمدها وقبضها وقال له الدم بالدم والهدم بالهدم ... (١) وأما الثانية فلعل الله تعالى يفتح عليك الفتوحات فيعوضك من الغنائم ماهو خير منه ، أى من خراج أهل الدرعية . فبايع محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى استقامة الشعائر »

الى أن قال : « ثم أمر أهل الدرعية بالمقاتلة معهم فامتلأ أمره وقاتلوا أهل نجد والاحساء دفعات كثيرة الى أن ادخلوهم الى طاعتهم وحصلت إمارة بلاد نجد وقبائلها جميعا لآل سعود بالغلبة ، وكان الشيخ كثير العطايا بحيث كان يهب كل ما غنمه الجيش مع كثرته الى رجلين أو ثلاثة ، وفي تاريخ ابن بشر الى حمد وابنه عبد العزيز ، وكانت الغنائم تسلم بيده ثم هو يضعها حيث يشاء ويعطيها الى من يشاء ولا يأخذ أمير نجد شيئا من ذلك الا بأمره ... ولما فتحوا الرياض من بلاد نجد واتسعت

(١) أى دمي دمك وهدمي هدمك . قال ابو عبيدة : « كانوا في الجاهلية الاولى اذا تحالفوا وتعاقدوا أو قتلوا ناراً حتى تكاد تحرقهم ... ويتصافحون عندها ويقولون الدم الدم والهدم والهدم ... » انتهى من شرح الالوسي

بلادهم وأمنت الطرق وانقاد لهم كل صعب فعرض الشيخ أمور الناس وأموال الغنائم الى عبد العزيز الأمير وأنسلخ الشيخ وتفرغ للعبادة وتعليم العلم ، ولكن لا يقطع عبد العزيز الأمير ولا أبوه أمرا ولا ينفذ حكما إلا بأمر الشيخ محمد ، وتوفى الشيخ المشار إليه في سنة ست بعد المائتين والالف ، وهى السنة التى غزا فيها سعود بن عبد العزيز ناحية جبل شمر وأخذ اهله وكسب منهم أموالا كثيرة منها ثمانية آلاف بعير ، وقتل منهم عدة رجال فأخرج خمسها وقسم الباقي على جيشه »

قال الالوسى : « وله من التصانيف كتب كثيرة ، منها كتاب التوحيد وتفسير القرآن وكتاب كشف الشبهات وغير ذلك من الرسائل والفتاوى الفقهية والاصولية ... وأعقب أربعة اولاد كلهم من أجلة العلماء وهم الشيخ حسين والشيخ عبد الله والشيخ على والشيخ ابراهيم تغمدهم الله برحمته أجمعين »

والكتاب الذى تضمن دعوة الشيخ من هذه الكتب التى ذكرها المولى الالوسى هو كتاب « التوحيد ... حق المولى على العبيد » وفيه يحصى الشيخ الذنوب التى تكفر صاحبها وتعتبر شركا بالله ، وأكثرها من البدع والخرافات والمغالاة بتعظيم الاحبار والاولياء ، ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ، ومن الشرك اتخاذ الرقى والتمايم للوقاية والتبرك بالشجر والحجر ، والذبح لغير الله والنذر لغير الله والاستعاذة بغير الله ، والعبادة عند القبور ، وان الغلو فى قبور الصالحين يسيئها أوثانا تعبد من دون الله ، وأن الكهانة والعيافة والتطير والتنجيم من الشيطان ، وأورد الشيخ الآيات والاحاديث التى تحرم الاستسقاء بالانواء ، وأنكر على المتصوفة تأويلاتهم وخوارقهم ، واستشهد على تحريم الصور بما ورد عن مسلم : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقى » (١)

(١) (يراجع كتاب التصوير عند العرب تأليف أحمد تيمور باشا ص ١٢١)

ويقول النبي عليه السلام في رواية عائشة : « أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » وحذر من المغالاة في تعظيم النبي عليه السلام مستشهدا بقول أنس : (ان ناسا قالوا يارسول الله ياخيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا فقال: أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد ابن عبد الله ورسوله ، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل »

وكان الشيخ ينكر الغلو ويستشهد بقول الرسول عليه السلام : « اياكم والغلو فانما اهلك من كان قبلكم الغلو » وقوله عليه السلام : « هلك المتنطعون . هلك المتنطعون . هلك المتنطعون »

ولا آخر للمناقشات التي دارت حول دعوة ابن عبد الوهاب مقابلة لتفسير بتفسير أو لاية بآية أو لحديث بحديث أو مخالفة لما يفهم من مقاصد هذه الآيات وهذه الأحاديث ، فلا يعنينا هنا أن ن فصلها أو نخوض مع الخائضين في جدلها ، ولكننا نرى في جملة ما تصفحناه من الآراء المتقابلة أن الإجماع منعقد أو يكاد على استنكار البدع والخرافات التي ذكرها ابن عبد الوهاب ولكن الخلاف على الشرك والتكفير أو على درجة الشرك الذي يخرج صاحبه عن الملة . واكبر من خالف الشيخ في ذلك أخوه الشيخ سليمان صاحب كتاب الصواعق الإلهية ، وهو لا يسلم لآخيه بمنزلة الاجتهاد والاستقلال بفهم الكتاب والسنة ويقابل تفسيراته بتفسيرات تذهب في غير مذهبها ، ويعتمد على ابن تيمية وابن القيم في مناقشة أخيه فيقول ان من أصول أهل السنة المجمع عليها كما ذكرها « ان الجاهل والمخطيء من هذه الأمة يعذر بالجهل والخطأ حتى تبين الحجة التي يكفر تاركها بيانا واضحا لا يلتبس على مثله أو ينكر ما هو معلوم بالضرورة من دين الاسلام مما أجمعوا عليه اجماعا جليا قطعيا يعرفه كل

من المسلمين » ويرى أن البدع التي يمر بها الأئمة جيلا بعد جيل ولا يكفرون أصحابها لا يكون الكفر فيها من اللزوم الذي يوجب القطع به ويستباح من أجله القتال ويقول في ذلك : « أن هذه الأمور حدثت من قبل زمن الامام أحمد في زمان أئمة الاسلام وانكرها من انكرها منهم ولا زالت حتى ملأت بلاد الاسلام كلها وفعلت هذه الافاعيل كلها التي تكفرون بها ولم يرو عن أحد من أئمة المسلمين أنهم كفروا بذلك ولا قالوا هؤلاء مرتدون ولا أمروا بجهادهم ولا سمووا بلاد المسلمين بلاد شرك وحرب كما قلتم أنتم بل كفرتم من لم يكفر بهذه الافاعيل وان لم يفعلها . اتظنون أن هذه الأمور من الوسائط التي يكفر فاعلها أجماعا وتمضى قرون الأئمة من ثمانمائة عام ولم يرو عن عالم من علماء المسلمين أنها كفر ؟ ... نبهنا الله وأياكم من الضلال »

وظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لقي في رسالته عنتا فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع ، ومن العنت أطباق الناس على الجهل والتوسل بما لا يضر ولا ينفع والتماس المصالح بغير أسبابها واثيان المسالك من غير أبوابها ، وقد غبر على البادية زمان يتكلمون فيه على التعاويد والتائم وأصائل المشعوذين والمنجمين ويدعون السعي من وجوهه توسلا باباطيل السحرة والدجالين حتى في الاستسقاء ودفع الوباء ، فكان حقا على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة ، وكان من أثر الدعوة الوهابية أنها صرفتهم عن الوان من البدع والخرافات ، ولكن المهم في الإصلاح أن ينصرفوا عن الجهل الذي يقعهم في بدع غير تلك البدع وخرافات غير تلك الخرافات ، وأن يكون انتهى على قدر الضرر الزائل وعلى قدر النفع المنتظر ، وهذا ما بقى للزمن أن يحكم فيه بعد دعوة ابن عبد الوهاب

السنوسية

وتقارب الوهابية في عصرها دعوة أخرى في البادية هي السنوسية التي تنسب إلى السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الذي ولد ببلدة مستغانم من بلاد الجزائر (سنة ١٧٨٧) والدعوتان تشابهان في حماسة الدعوات البادية وفي نبذ البدع والخرافات والرجوع بالإسلام إلى الكتاب والسنة ، ولكنهما تختلفان بعد ذلك في أمور كثيرة

فليست السنوسية مذهباً ولا نحلة ولا نقضا للمذهب من المذاهب وإنما هي « أخوة » في الله أو طريقة يتبعها من شاء من المسلمين ولا يطلب منه عند اتباعها غير قراءة الفاتحة على العهد ، واتباعها على درجات أولها درجة الخواص ثم الإخوان ثم المنتسبون ، ولا فرق بين هذه الدرجات في غير العلم والأخلاص وحسن السيرة والولاء للآخرين ، ولا يشترط في درجاتها العليا أن تنحصر في البيت السنوسي بل يكون منهم الأقرباء وغير الأقرباء

والسنوسي مجتهد ولكنه يتبع مذهب الإمام مالك إلا في القليل الذي صح عنده أنه أقرب إلى السنة ، ولا يتصدي بالنقض لأحد من الأئمة بل كان أبغض الأشياء إليه — كما قال الشيخ محمد بن عثمان الحشايشي في رحلته — أن يسمع مقالة السوء في إمام أو غير إمام ، وقد تعرض للقتل من جراء اجتهداده وألع الأستاذ الإمام محمد عبده إلى ذلك في كتابه عن الإسلام والنصرانية إذ يقول : « ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي

كتب كتابا في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية وجاء في كتاب له ما يدل على دعواه أنه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة وقد يرى ما يخالف رأى مجتهد او مجتهدين فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية وكان المقدم من علماء الجامع الأزهر الشريف فحمل حسرة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها لانه خرق حرمة الدين وتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجترىء الاستاذ على طعن الشيخ السنوسى بالحربة او لاقاه وانما الذى خلص السنوسى من الطعنة ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة وارتكاب الجريمة باسم الشريعة هو مفارقة السنوسى للقاهرة «



وقد اجتهد الشيخ في مذهبه بعد أن حضر دروس الفقه والتفسير والحديث في بلده وفي مراكش ولقى العلماء بمصر ومكة واليمن وصاحب بعض أئمة الطرق في المغرب والمشرق ، ثم ضاقت به سبل الدعوة تحت نظر الحكومة العثمانية التي كانت تتوجس من أمثال هذه الدعوات فعكف على زاويته البيضاء واختار لمقامه واحة جفوب وبنى بها مسجدا ومدرسة للعلوم الدينية واستصوب أن ينشر طريقته بنشر الزوايا في أرجاء العالم الاسلامى فانتشرت حيثما استطاع بين برقة وطرابلس ومصر والسودان وبلاد العرب ، واطلعنا في كتاب « سنوسى برقة » الذى ألفه برتشارد Pritchard على أسماء مائة وست وأربعين مدينة وقرية فيها زوايا للطريقة ويوشك أن يكون شيوخ هذه الزوايا مرجعا لاتباعهم في أمور الدين والدنيا يرشدونهم الى الفرائض والواجبات ويفضون خصوماتهم ، ويكفونهم عن الشر كما قال ابن مقرب :

فكم من حريم قد أباحوا وأجحفوا
بمال غنى لا يخافون عاذا

فأرشدهم للرشد من حل بينهم
فلا زال مهديا ولا زال هاديا

وكم بدوى فى الفلا خلف ناقة
« يجول » على الاعقاب أشعث حافيا

تلقاه فى مهد الضلالة هاويا
فأصبح نجما فى الهداية عاليا

وكم من جهول أسود اللون خلقه
كساه لباس العلم أبيض صسافيا

ولا تبيح السنوسية الفلو فى تقديس المشايخ الاحياء او
الاموات ، ولا تأذن لاتباعها أن يذكروا ميتا عند قبره بغير الدعاء
له والترحم عليه ، ولكنها لا تمنع اللياذ بالمقامات للعة والتبرك .
وشرعتها فى ذلك أنها نشأت حيث كانت مقامات المرابطين من
عهد الاندلس فأرادت أن تجدها ولا تشعر أهل الصحراء
بالتقم عليها

وكان الشيخ السنوسى - بخلاف الغالب على مشايخ الطرق
- خيرا بأحوال السياسة العالمية فوفر فى ذهنه أن النابيطان
أى الايطاليين مغرون لا محالة على برقة فى يوم قريب فأوغل
بمقامه الى واحة الكفرة على طريق السودان ليشرق من ثم
على تعليم أهل الصحراء جنوبا وشمالا وشرقا وغربا ويهيىء
فى جوف الصحراء ملاذا لمن تقصيههم غارات المستعمرين عن
السواحل ومدن الحضارة

وتوفى الشيخ سنة ١٨٥٩ فدفن بالجغبوب حيث بنى مزاره
الكبير وخلفه على امامة الطريقة ابن أخيه السيد أحمد الشريف
وقد كان اثر الطريقة السنوسية فى المغرب والسودان
والصحراء الكبرى اثرا صالحا فى جملته وشهدنا ما لابناء الشيخ
وعشيرته من السلطان الروحي بين أهل البادية فى رحلتنا
الانتخابية يوم كنا نرشح للنيابة عن الصحراء فرأينا من هذا

السلطان مالم تبلفه القوة ومخافة السطوة ، وحدث مرة أن
واحدا من أصحابنا القى على جمع من البدو الى جوار بيت
السيد السنوسى بمرسى مطروح اكوابا من الورق المقوى لشرب
الماء فتهافتوا عليها وتعذر على الجند أن يفضوهم بالحسنى ،
فما هو الا أن نهض السيد ابراهيم وناذاهم الى قراءة الفاتحة
حتى تركوا ما هم فيه جميعا وقاموا يتبعونه فى تلاوتها ثم اوما
اليهم فانصرفوا بسلام

ويرى العارفون بالصحراء أن هذا السلطان الروحى ينبسط
الى جوفها الاقصى ويهدى ابناءها مع حسن التعهد والقوامة
الى سبيل الصلاح والتعمير



طرائق أخرى

وقد عاصرت الوهابية والسنوسية حركات كبيرة أكثرها من قبيل الطرائق و « الأخوات » التي تنشر الزوايا والخلوات في البوادي الشاسعة كالصحراء الغربية وما يليها ، ومنها طرائق تضارع في كثرة أتباعها الوهابية والسنوسية ، ولكنها نمط آخر من الحركات الإسلامية التي لا ترتبط بحوادث القرن التاسع عشر أو القرن العشرين خاصة ، ويصح أن تظهر قبل ثلاثة قرون أو أربعة كما يصح أن تظهر بعد العصر الحاضر في بيئاتها التي ثلاثها ، فليست هي من قبيل رد الفعل للعوارض السياسية أو الاجتماعية التي أصابت الدول الإسلامية في القرون الأخيرة ، لأن أمثالها من حركات الاعتكاف قد ظهر قبل ستمائة سنة وشعاره الغالب عليه « دع الخلق للخالق » بخلاف الحركات الأخرى التي تتصدى لشئون السياسة بالتأييد أو بمقاومة تهيم العدة للمستقبل في هذا الميدان

وأكبر الطرائق التي عاصرت الدعوة السنوسية على وجه التقريب طريقتان : أحدهما شاعت في المغرب وشواطئه ثم في السودان وآسيا الصغرى وهي الطريقة التجانية ، والأخرى شاعت في الجزائر ثم في مصر والسودان وهي الطريقة المرغنية

وتنسب الطريقة التجانية إلى تيجان بالمغرب حيث أقام أمامها الشيخ « أحمد محمد المختار » الذي ولد بقرية « عين ماضي » سنة ١٧٣٧ الميلادية ، وكان في شبابه من أتباع الطريقة الشاذلية

ثم دعا الى طريقته بعد أن جاوز الاربعين ، ومن آداب هذه الطريقة أنها لا تناهض الحكم القائم ولا يعنى اتباعها بعد الولاء لشيخها بتغيير السلطان حيث كان ، فمنهم من بايع الدولة الشريفة بمراكش ، ومنهم من بايع « محمد سعيد باشا » بمصر واعتبره من الزمرة التجانية ، ومنهم من كان يسفر بين سلطان دارفور والسلطان العثماني عبد المجيد ، ولكنهم لا يقبلون الهوادة في مسألة الولاء للشيخ الكبير ويرتابون أشد الريب فيمن يشرك في ولائه أحدا غير أمام طريقته كأنه قابل لأن يتدرج من ذلك الى المشاركة في ولائه لنبيه وخالقه ، وقد قال صاحب كتاب الرماح وهو من كتبهم المعدودة : « ان من اكبر الشروط الجامعة بين الشيخ ومريده ألا يشرك في محبته غيره ولا في تعظيمه ولا في الاستمداد منه ولا في الانقطاع اليه ويتأمل ذلك في شريعة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان من سوى رتبة نبيه (ص) برتبة غيره من النبيين والمرسلين في المحبة والتعظيم والاستمداد والانقطاع اليه بالقلب والتشريع فهو عنوان على أن يموت كافرا الا أن تدركه عناية ربانية »

ويعرف أتباع التجانية في السودان باسم « الفلاتة » وهو الاسم الذي يطلق في الغالب على الغرباء المهاجرين من شواطئ أفريقية الغربية ، ومن أتباعها من يقيم الآن في آسيا الصغرى ويحاول أن يسترد حرية في نشر الدعوة الى شعائر الدين

ويرجع الفضل الأكبر في انتشار الطريقة الميرغنية الى السيد محمد عثمان الميرغني المتوفى سنة ١٨٥٣ الميلادية ، أحد تلاميذ السيد أحمد بن إدريس بالحجاز . وقد زامله في هذه التلمذة السيد السنوسي الكبير ، وكلاهما عالم لا فقيه واسع التحصيل ولكن الميرغني أقرب الى خلائق العزلة والتعمق في الاسرار الصوفية ، وزميله السنوسي أقرب الى خلائق الدأب والمجاهدة والسياسة العملية ، ولهذا كان الملوك والامراء يتبعون أخبارا

ويخشون بأسمه من سلطان القسطنطينية الى سلطان دارفور ، وكان المحافظون من العلية والرؤساء في الحجاز يميلون الى الطريقة المرغنية ويوجسون خيفة من شيوع السنوسية بين اهل البادية العربية والبادية المغربية ، ولم يتفق التلميذان بعد شيخهما الكبير ولكنهما لم يتنازعا في مكان واحد ، وانقسم الميدان لهما بغير تقسيم

كان الشاغل الاكبر للسيد محمد عثمان في شبابه ان يبحث عن الحقيقة الصوفية حيثما وجد سبيلا اليها ، فاتبع الطريقة النقشبندية ثم الطريقة القادرية ثم الطريقة الجنيدية ثم الطريقة الشاذلية طريقة أستاذه أحمد بن إدريس . وقد نذبه أستاذه للدعوة باسمه في مصر والسودان فبرح الحجاز الى القصير وقصد الى أسوان من طريق النيل فانتشرت دعوته بين النوبيين . وبرح مصر من ثم الى السودان ونجح نجاحا طيبا بين اهل دنقلة وكردفان واتبعه كثيرون من قبائل البجاة ، ثم قفل الى الحجاز وواظب على حضور الدروس وملازمة أستاذه الكبير الى يوم وفاته (سنة ١٨٣٧) ولكنه أحس العداء ممن كانوا ينافسونه في مكة فعكف على العبادة بالطائف واكتفى بجهود ولديه في نشر الدعوة اذ اتجه السيد محمد سر الختم الى اليمن واتجه السيد الحسن الى سواكن فالتف به المريدون من قبائل بنى عامر والحلائقة واكثرهم من البجاة

ولم تظهر في العهد الحديث طريقة اكبر من هذه الطرق الثلاث : وهى السنوسية والتجانية والمرغنية ، ويستلفت النظر ان هذه الطرق جميعا تشيع بين السنين وقلما تشيع بين الشيعة ولا سيما الشيعة الامامية ، ولعلها بين السنين بديل من اعتقاد الشيعة في الامامة المنتظرة بشروطها الخاصة التى يصعب ادعاؤها بغير ادعاء المهديّة ، وهى دعوى كبيرة يشهد الشيعة أنفسهم فى محاسبة من يجترئ عليها

المصاحون المعامون

السيد أحمد خان

تقدم أن النهضة الإسلامية في القرن التاسع عشر قد اتسعت لكل تجربة من تجارب الإصلاح : إصلاح بالعودة الى القديم ، وإصلاح بالتجديد ، وإصلاح بأحياء الحماسة الدينية ، وإصلاح بمجاعة الحضارة العصرية ، ودعوات يقوم بها الثائرون وأخرى يقوم بها المتطهرون المعتكفون ، وغير هذه وتلك دعوات يقوم بها المعلمون والمهذبون ، وسنرى أن هذه الدعوات - دعوات المعلمين المهذبين - كانت الزم دعوات الإصلاح وأبقاها اثرا وأوفقها لكل زمان ومكان ، وأبعدها من أن تضيع عبثا كيفما كانت أحوال الامم التى تنجم فيها وتنمو بين ظهرانيها

وقد ظهرت في أهم البيئات التى ينبغى أن تظهر فيها وفي الزمن الذى ينبغى أن تظهر فيه

ظهرت في الهند وفي مصر وفيما بينهما من بلاد الشرق الاوسط ، وكان قادتها على هذا الترتيب الزمانى : السيد أحمد خان الهندى والسيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وهو المصلح المخضرم بين عصر الجمود وعصر اليقظة والتقدم

ولد السيد أحمد خان سنة ١٨١٧ بمدينة دلهى ولا تزال للدولة المغولية بقية فيها وكانت أسرته لآبيه وامه من كبار المتصلين بها ، وخاله فريد الدين أحد وزرائها ، وقد أنعم عليه بهادر شاه - آخر ملوكها - بلقب « أستاذ الحرب » بعد وفاة

والده ، ولما يبلغ العشرين

وكان التقليد المرعى بين مسلمى الهند مقاطعة الوظائف في ظل الحكم الانجليزى ، ولكن نشأة أحمد خان بين رجال الدولة رشحته لولاية الوظائف فلم يرفض الوظيفة التى عرضت عليه فى سلك القضاء

وانفجرت ثورة الهند « سنة ١٨٥٧ » وهو قاض فى بجنور فحال جهده بين الثوار وقتل المسالمين والنساء ، ولم يمنعه ذلك أن يؤلف كتابه فى أسباب الثورة فيلقى تبعاتها على الإدارة الانجليزية ويدحض ما قيل من تدبير هذه الثورة فى بلاد الافغان بايعاز من الحكومة الروسية ، لان أسبابها الوطنية كافية لنشوبها مغنية عن كل تدبير يتسلل اليها من خارج البلاد الهندية

روى عن السيد أحمد خان وهو طفل صغير أنه دعى مع أنداده وأهلهم الى بلاط بهادر شاه فنودى عليه مع التلاميذ الذين استدعاهم الملك لتشجيعهم ومكافاتهم فلم يجب ، وتكرر النداء ولا جواب ، ثم وجده رجال الحاشية منزويا فى مكان قريب فسالوه : لم لم تجب حين نودى باسمك بين زملائك ، فلم يحجم أن يذكر السبب الصحيح ، وهو أنه انتظر وطال انتظاره فاستسلم للنوم !

وضحك رجال الحاشية وظنوا أنه سبب لا يقال فى حضرة ملك ، فلم يشأ الصبى الصغير أن يتلطف فى الاعتذار ويتعلل بسبب غير هذا السبب الصحيح

ولم يتغير أحمد خان بعد أن جاوز الأربعين ، فانه كاشف أبناء قومه بعله جمودهم ، ولم يقبل قط أن يتملقهم ويخفى عنهم أسباب قصورهم وعجزهم ، وصارح الدولة الحاكمة بأسباب الثورة ومايقع عليهم من تبعاتها ، وصارح أبناء قومه بتبعاتهم فكانت خلاصة هذه التبعات فى رأيه أنهم

« نائمون »

وقد وصف السيد أحمد خان بالاناة والخذر، وكاد المترجمون له أن يصفوه بالمبالغة في أناته وحذره ، ولكنهم لو وصفوه بالاقدام أو الهجوم لوجدوا الدلائل على ذلك أظهر وأكثر من دلائل الاناة ان كان معنى الاناة أن يتخلف المستأنى عن العمل في حينه ، فما توانى أحمد خان عن مصارحة الانجليز بتبعاتهم وعيوب ادارتهم ، وماتوانى عن مصارحة قومه بجمودهم وعجزهم ووسائل الخلاص من نكبتهم ، وما توانى بعد ذلك عن مصارحة الهند كلها بتنظيم الحياة النيابية فيها على النحو الذى يصلح لجميع أبنائها مع تعدد النحل وتفاوت النسبة في توزيع السكان ، ولكنه كان يتأنى حين يخشى مقبة العجلة ولا يؤمن بجداولها ، وكانت هذه الاناة منه أدل على الشجاعة من الهجوم السريع ، لانه كان يفضب بها أضعاف من يرضيهم بالتعجل في غير جدوى

وقد عرف مكانم الضعف في قومه ولم تخف عليه مكانم القوة في الدولة الغالبة على وطنه ، فجزم بضرورة التعليم الحديث ثم بدا برسالة ابنه الى الجامعات الانجليزية واعتزم أن يصحبه اليها ليطالع بنفسه على حقائق الحضارة الاوربية في بلادها ، وقد لخصها في جوهرها أحسن تلخيص فجمع حقائقها النافعة في كلمتين : وهما العلم والخلق، ورأى أن الشاب المسلم لا يكسب الخلق المتين بغير دين ، فليخص برنامج الإصلاح عنده في الدين المستنير ، وجعل شعاره كله كلمة واحدة يعيدها مرات : وهى علم ، ثم علم ، ثم علم ، أو تعلم ثم تعلم ثم تعلم . بغير انقطاع عن التعلم أو التعليم

ولما توفي وهو في الحادية والثمانين كان للمسلمين في الهند مدرسة كلية عالية ومدارس حديثة متفرقة ، وكان لهم ما هو أهم من ذلك والزم وهو الوجهة المرسومة ومعالم الطريق التى

لا تخفى على ذى عينين ، وقد خطا السيد احمد خان هذه
الخطوة التى احجم عنها معاصروه لانهم لا يعرفونها ولا يجسرون
عليها ، فعرفها ولم يحجم عنها . وقال من قال انها لخطوة
عظيمة واستصغرها آخرون فقالوا انه قد اطلال الاناة فيها ،
ولكنهم مجمعون على انها هى الخطوة التى لا بد منها فى البداءة ،
فلا تتأتى الخطوات التالية الا بعد الاقدام عليها ، وقد اقدم
عليها فاتبعه فى الطريق من يؤثر العجلة ومن يؤثر الاناة



جمال الدين

والعلم الاكبر جمال الدين من ابناء الاقاليم الوسطى . بين الهند والبلاد العربية وبلاد الدولة العثمانية ، وكانما شاءت العناية أن يولد حيث يتوسط العالم الاسلامى ويتولى فيه دعوة الاصلاح والتعليم من اقصاه الى اقصاه

والقول المشهور انه هو وآباؤه وأجداده من ابناء الافغان ، ويقال غير هذا انه ولد بقرية « أسد اباد » في جوار همدان من بلاد فارس ثم انتقل الى الافغان وتعمد اخفاء نسبته الفارسية بعد أن تجرد للدعوة الاصلاح في العالم الاسلامى كافة وتوقع من شاه العجم أن يطالب بتسليمه لانه من رعاياه ، فضلا عن غلبة المذاهب السنية على البلاد التى خاطبها بدعوته ومنها بلاد الترك ومصر وسائر البلاد العربية

الا انه لاختلاف في نشأته منذ صباه في بلاد الافغان ، وفيها تعلم الفقه على مذهب أبى حنيفة ودرس علم الكلام وهو خلاصة الفلسفة الدينية ، كما أحاط بالميسور من علوم الرياضة والهندسة في كتب الاقدمين ، وكان في أخريات أيامه يعرف الفرنسية والتركية وقليلًا من الانجليزية ، عدا الفارسية والعربية التى كان يتكلم الفصحى منها بلهجة الفرس المستعربين

واذا لخصت رسالة جمال الدين في كلمتين فرسالته بالايجاز هى. « الجامعة الاسلامية »

ولكن الجامعة الاسلامية كما أرادها جمال الدين شئ غير

الجامعة الإسلامية التي براد بها توحيد الحكومات وضمها جميعا الى حكومة واحدة ، وانما يتوقف فهم هذه الجامعة على مراجعة احوال الامم التي درج جمال الدين وهو يستمع الى اخبارها ويشترك في شئونها ، وهى بلاد الافغان وايران ، وقبائل الترك ومن ورائهم دولة بنى عثمان ، ومن حولهم مطامع الاستعمار ودسائسه في أوج سلطان المستعمرين من البريطان والروس بعد اجتياحهم للهند وأواسط آسيا بزم من قليل

فقد فتح السيد عينيه على بلاد الافغان وفارس وهى على أعنف ما يكون من التنازع والبغضاء ، وكانت حكومة الهند البريطانية تستغل الخلاف بين الامتين في المذهب والخلاف بينهما على الحدود كما تستغل حاجتهما الى المال والسلاح ، فتغرى احدهما بالآخرى وتبذل لها من مالها وسلاحها ما تقوى به على جاريتها وتشترط عليها الا تعقد الصلح معها حتى تاذن لها والا قطعت عنها المدد والمعونة ، وكانت حكومة الهند لا تاذن بالصلح الا أن تكون الدولة المغلوبة قد نزلت عن دعواها في الحدود الهندية

وربما سكن القتال بين الافغان والفرس على مقربة من الهند لينشب بين الفرس والترك من قبل العراق وبحر الخزر بايعاز من الروس أو طلاب الرخص الاقتصادية ، وينتهى القتال من هنا وهناك بفنيمة للانجليز أو للروس وخسارة على الافغان والفرس والترك أجمعين

وقد وضع جمال الدين يده على الداء كله حينما أدرك أن العلاج السريع لهذه الحنة انما يبدأ بالتوفيق بين الامم الإسلامية وكف المطامع والدسائس عن بلادها ، وكان يشق عليه كثيرا أن يرى هذه الامم كما قال : « متحدين على الخلاف مختلفين على الاتحاد مطاوعين للمستعمرين والمستغلين جادين في خدمتهم كأنها فريضة من فرائض الدين » . فعقد عزيمته على رسالة

واحدة يتحراها مدى الحياة وهي حسم الخلاف بين الامم
الاسلامية وايصاد الابواب على المستعمرين والمستقلين حتى
تنقطع المطامع التي تسول لهم العدوان على الامم الاسلامية
وايقاع الفتنة والشقاق بين حكوماتها وطوائفها

وهذه هي الجامعة الاسلامية كما ارادها جمال الدين ، وفي
سبيلها رحل الى الهند وبلاد العرب والاساتنة ومصر وروسيا
وفرنسا وانجلترا وخرج من الهند مرة ، على رواية مستر بلنت
المستشرق الايرلندي ، قاصدا الى الولايات المتحدة ليتجنس
بالجنسية الامريكية ويستثمر الامريكيين على الانجليز والروس ،
وكان قد سمع بمساعي الامريكيين في الشرق الاقصى فخطر له
أن يستخدمها في قضيته ، ولكنه اقام اشهرا في الولايات المتحدة
على قول مستر بلنت فعدل عن عزمه ولم يتم ما نواه من
رحلته ، ولعله عرف بالخبرة الواقعة انه يعلق الرجاء حيث
لا رجاء

وقد خطر لجمال الدين يوما أن يرسل تلميذه ومريده الشيخ
محمد عبده الى السودان لتنظيم الثورة المهدية وتحويلها الى
خدمة الجامعة الاسلامية ، وخطر له في مصر أن يسقط الخديو
اسماعيل ويقيم فيها الجمهورية ، بل خطر له أن يحرض على
اسماعيل من يفتاله عسى أن يجد من خليفته توفيق مستمعا
لنصائحه ووصاياه

وقد توسل جمال الدين في رسالته بكل وسيلة تملكها يداه
فأصدر في أوروبا صحيفة « العروة الوثقى » وصحيفة « ضياء
الخافقين » وأنشأ في مصر « حقل ماسونيا بعيدا من سيطرة
المحافل الاجنبية ، وقيل أنه لاقى في مكة المكرمة جماعة « أم
القرى » وهم بالسفر الى نجد لقيادة الحركة الوهابية ، ولم
يهدأ قط في حياته عن عمل مستطاع يحقق به رسالة الجامعة
الاسلامية ، واتهمه السلطان عبد الحميد بالعمل في الاستانة

على استمالة الخديو عباس الثانى الى تنفيذ مساعيه يوم
زارها فى ضيافة السلطان ، ثم أصيب بالسرطان فمات به
(سنة ١٨٩٧) وحظر السلطان الاحتفال بجنائزه فلم يشيعه
الى مقبره الاخير غير آحاد معدودين ، وفارق الحياة ولم تتحقق
مساعيه لانها اكبر من أن تحققها جهود جيل واحد ، غير أنه
احسن بلر الدور فلم تمت فى تربتها الصالحة ، وحق لترجمه
أن يقول : « أن تاريخ الشرق الاسلامى فى ثوراته على الحكم
المطلق وعلى مطامع الاستعمار والاستغلال لن ينفصل عن تاريخ
جمال الدين »



محمد عبده

هؤلاء المصلحون المعلمون الثلاثة نشأوا كنشأة الاخوة في أسرة واحدة : ولد السيد احمد خان في سنة ١٨١٧ وولد السيد جمال الدين في سنة ١٨٣٩ وولد الشيخ محمد عبده في سنة ١٨٤٩ . . . وكان بينهم من التخصص على غير قصد ما يشبه توزيع الوظائف في المهمة الواحدة ، فتولى كل منهم عمله الذي يستطيعه حيث استطاع ، ولم يكن للعالم الاسلامي غنى عن واحد منهم في موضعه او في مهمته كما فرضتها عليه دواعي الاصلاح

ولقب الشيخ محمد عبده بحق « الاستاذ الامام » . . لان هذا اللقب يلخص رسالته في الاصلاح بين زميليه احمد خان وجمال الدين

فهو مصلح معلم كالسيد احمد خان ، ولكنه يزيد عليه بالامامة الدينية التي لم يتهيا لها السيد احمد ولم يرشح نفسه لها ، بل قصر جهوده كلها على ايقاظ المسلمين وتنبيههم الى حاجتهم من العلم الحديث

فالشيخ محمد عبده استاذ امام ، ورسالته هي التعليم والامامة في وقت واحد . وفحواها انه خرج من تجاربه كلها بنتيجة واحدة وهي فساد الجو السياسي من حوله ، فلم يبق له أمل في اصلاح المسلمين بالوسائل السياسية وآمن برسالته « العلمية الدينية » كل الايمان فانصرف بعزيمته كلها الى رفع

الحجر عن العقول بأجازه الاجتهاد لمن يقدر عليه وتفسير المسائل الدينية تفسيراً يطابق العلم الحديث

وتبدو هذه الكلمات سهلة هينة لمن يقرؤها في العصر الحاضر، ولكنه يعرف صعوبتها - بل خطرها - اذا عرف ان القول بدوران الارض كان يعرض القائل به لتهمة الكفر والتواطؤ مع اعداء الدين على افساده ، وأن استخدام التليفون حرج شديد لانه قد يكون من آلات الشيطان وافاعيل السحرة «المتشيطين» وقد بدا للأستاذ الامام عبث السياسة وهو يعاون السيد جمال الدين في مساعيه الاوربية ، فكان يعاود له المشورة بتركها والاقبال على تعليم المصلحين والمرشدين ، وكان يقول له حيناً بعد حين : « اننا اذا علمنا عشرة وارسلناهم في أرجاء العالم الاسلامي فعلم كل منهم عشرة من مريديه أصبح في العالم الاسلامي مائة مرشد فالف مرشد بعد ثلاثين سنة أو أربعين ، وذلك اوثق واوفق من عملنا الضائع بين الساسة والامراء .. » وكان السيد جمال الدين يستمع اليه مرة ويحتد في جوابه مرة اخرى فيقول له : « انك لمن المبطين »

وقد بدا الشيخ محمد عبده حياته بالتعليم بعد حصوله على درجة العالمية من الجامع الازهر ، فألقى بعض الدروس (سنة ١٨٧٩) في دار العلوم ثم طاحت به شبهات السياسة فأخرج منها والزم المقام بقريته « محلة نصر » باقليم البحيرة ، ثم أفرجت عنه وزارة رياض ووكلت اليه الاشراف على تحرير الصحيفة الرسمية فأدركته الثورة العراقية وهو في تلك الوظيفة، وقد اشترك في الثورة حتى أفلت العنان من يديها فأنف من خذلانها في أخرج مآزقها وأصابه ما أصاب رجالها من عقوبات السجن والنفي الى خارج البلاد ، فاتخذ من النفي فرصة لنشر الدعوة الى الحرية الفكرية وضاق به المقام في بيروت فلحق بأستاذه جمال الدين في باريس ، وتعاونوا معا على اصدار

صحيفة « العروة الوثقى » فلم تتم عشرين عددا حتى ضريت حولها السدود في البلاد الاسلامية فتعذر المضي في اصدارها واختار الشيخ محمد عبده أن يشخص الى تونس عسى أن يتسع له فيها مجال العمل لما كان بين الدولتين الفرنسية والانجليزية يومئذ من التنافس ، على اجتذاب أقطاب المسلمين ، فلم يلبث غير قليل حتى خاب ظنه وأزمع الرحلة الى بيروت ليقيم فيها مشغولا بالدراسات الادبية ، وفي هذه الفترة عكف على شرح نهج البلاغة ومقامات البديع وترجم من الفارسية رسالة أستاذه جمال الدين في الرد على الدهريين

ثم عفى عن المنفيين فعاد الى القاهرة وتولى القضاء قاضيا فمستشارا بالحكمة العليا ، وشغله في وظيفته بالقضاء الاهل ، أن ينظر في اصلاح المحاكم الشرعية وفي تجديد نظام التعليم بالجامع الأزهر فأشار بتأليف مجلس من المختصين يشرف على شؤنه العلمية والادارية ونذب للعمل في هذا المجلس عند تأليفه ، ثم اختير لمنصب الافتاء فلم ينقطع في هذا المنصب عنلقاء الدروس بالجامع الأزهر واصلاح التعليم فيه

واستفاضت شهرة الشيخ في العالم الاسلامي من تخوم الصين ومراكش الى أفريقية الجنوبية ، واعتمد عليه المسلمون في استجازة مايجوز وتحريم مايحرم وهم بين الحضارة الحديثة وجهود الجامدين حائرون فيما يأخذون وما يدعون من اموال الدنيا والدين ، ويدل على استفاضة هذه الشهرة فتوى « الترنسفال » التي أقامت الدنيا وأقعدتها عدة شهور ، لانه أفتى فيها بتحليل طعام أهل الكتاب وليس ملابسهم ، كما أفتى بالاستجازة في أمر صناديق التوفير توصيحا للمقصود من تحريم الربا المضاعف بنص القرآن الكريم ، وقد كانت الاسئلة تتقاطر على « المفتى » من أرجاء العالم الاسلامي فيبادر الى الاجابة عنها على مافي الجواب أحيانا من العنت والاصطدام

بجهالة الجامدين ومنافعهم الموروثة في كل قطر من اقطار المشرق
والغرب ، ولا يغلو من يقول انه فارق الدنيا - وهو في الخامسة
والخمسين من عمره - وله في كل بلد اسلامي دليل ينيز الطريق
من فتاواه ودروسه وسيرته التي ارتفع بها مكانا عليا من
النزاهة النادرة والخلق المتين

وعلى الجملة ينبغي ان يقال ان هؤلاء المصلحين المعلمين قد
عملوا غاية ما في التوسع للاصلاح والتنبيه واقامة القدوة المثلى
لمن تابعهم من المصلحين والمنبهين

الا ان الحقيقة الواقعة تستوجب علينا ان نقول ان أعمال
ثلاثة او ثلاثين من المصلحين المعلمين لم تكن لتبلغ هذا المدى
البعيد من حث العالم الاسلامي واستنهاضه لو لم يكن لهم
سميع مجيب من جيشان الشعور بين المسلمين ، وان يكن
جيشانا مبهما يتخبط بين غواشي الظلم والظلام

وفضل العقيدة هو الفضل الاكبر في اعداد النفوس للاستماع
من المصلحين والايمان بوجوب التغيير والاتجاه الى وجهته
القوية ، ومن ثم وجدت في الحكومات الفاسدة نفسها عوامل
اليقظة والانتباه الى التغيير أو الاصلاح ، فوجد في ايران وزير
كميرزا تقى خان يحاول ان يحد من سلطان الشاه ناصر الدين ،
ووجد في تركية رجال كأحمد مدحت يحاولون مثل هذا مع
السلطان عبد الحميد ، ووجد في مصر رجال كمحمد شريف
واحمد رياض قبيل انفجار الثورة العراقية ، ووجد في المغرب
امثال خير الدين ، ولم يكن وجودهم مصادفة ولا فلتة من
الفلتات العارضة ، بل كان علامة من علامات الزمن لابد لها
من مغربات وآثار

المهديون

- ١٣١ - ٩ - الاسلام في القرن العشرين

من أقوى الدلائل على عمق الاثر الذى تركته ضربات الاستعمار فى أرجاء العالم الاسلامى هذه الظاهرة المتفجرة التى تواترت فى تلك الارحاء ولما ينقض على هجوم الاستعمار جيل واحد ، وخلاصة هذه الظاهرة : أن رد الفعل بعدها قد برز بكل نوع من أنواعه فى تلك الارحاء فلم يكن فى العالم الاسلامى كله بلد خلا كل الخلو من احداها

فكما توزع العالم الاسلامى دعوات المعلمين المصلحين كذلك توزع دعوات الساسة وأصحاب الطرق الصوفية ودعوات التجديد أو العودة الى القديم الصحيح وتخليصه من شوائب البدع والخرافات ، ثم توزعته كذلك دعوات اخرى من نوع آخر وهى دعوات المهديين الذين زعموا أنهم مبعوثون على موعد وانهم رسل الخلاص والنجاة . . فظهر منهم من ظهر فى الهند ، وظهر منهم من ظهر فى الرقعة الوسطى من ارض فارس ، وظهر غيرهم فى وادى النيل ، ومن قبل رأينا أن هذه الاقطار هى التى أخرجت العالم الاسلامى السيد أحمد خان والسيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده المصرى ، وأخرجت كذلك رواد السياسة والوزراء

ظاهرة تدل على قوة الاثر وتدلل كذلك على حياة البنية التى تستجيب لكل فعل برده الذى يناسبه فى حينه ، وليست البنية هنا الا العقيدة التى هى مرجع تلك القوة وتلك المقاومة والمهديون نوع آخر من الدعاة ، ولكنه نوع له محله وأوانه كيفما كان

وأشهرهم في عصر الاستعمار ثلاثة : هم ميرزا علي محمد الملقب بالباب وقد ظهر في إيران ، وميرزا غلام أحمد القادياني وقد ظهر في الهند ، ومحمد أحمد عبد الله وقد ظهر في السودان

والغالب على اعتقاد المؤرخين أن المهديين قوم خادعون يتعمدون الكذب في دعوتهم ويسرون غير ما يعلنون من طلب الإصلاح والعناية بشئون الدين

ولكن الكذب المحض في أمثال هذه الدعوات أمر غير معقول . . .
والاقرب عندنا الى المعقول في أمرهم أنهم عاشوا في فترة انتظار متفق عليه ، وأنهم نشأوا نشأة « صوفية » في أكثر الاجيال فاشترأت نفوسهم أن يكون الرجاء المنتظر على أيديهم ، وربما ساورهم الظن أنهم مندوبون لتحقيق الرجاء فاشفقوا أن ينكلوا عن هذه الندبة وأقدموا خوف المخالفة وأملا في صدق الوعد مع العمل والجهاد ، ثم طوتهم الشبكة المعقدة من هواجس ضمايرهم ومما أحاط بهم من عقائد اتباعهم ومن ضرورات المواقف المتلاحقة التي لا يسهل الخلاص منها ، فأسلموا أنفسهم للحوادث واعتدروا لها بحسن المقصد وسلامة النية ، أو كان منهم من يلج في الكابرة والمغالطة لانه لا يأمن التراجع ولا يقدر عليه ، ومنهم من يخالطه الوسواس فيفعل أفعال المجانين !
ونحسب أن الباب أشد هؤلاء ثقة بنفسه في البداية وأقلهم ثقة بها في النهاية ، ولهذا كان بعدهم عن العقيدة السوية في الاسلام

(١) الباب

وأول نشأة البابية في عصر الاستعمار شيخ يسمى الحاج كظم الرشتي الجيلاني ولد في أول القرن الثالث عشر للهجرة (سنة ١٢٠٥) وتلمذ على الشيخ أحمد الاحساني الذي ولد

في البحرين وجمال في بلاد فارس وتلقى الدروس عن الفلاسفة
والتصوفة ، ودان بمذهب الخلول مع تعليمه لمذهب الشيعة
الإمامية الاثنى عشرية

وقد أخذ كاظم الرشتي مبادئ الفلسفة والتصوف عن هذا
الشيخ الذي تنسب اليه الفرقة « الشيخية » وتعلم من استاذ
أن المهدي المنتظر سابع في عالم الروح يوشك أن يظهر بالجسد
خلافًا لاعتقاد الإمامية أنه محتجب بجسده الى أن يحين يوم
الفرج الموعود ، وكان من تلاميذ الحاج كاظم فتى يسمى على
محمد يتنسك وتعاوده حالات الوجوم والغيوبة . فتسمى
باسم باب المهدي أو باب الدين ، وقال أن المهدي إنما يأتي الى
الدنيا بعد اجتماع الخلق على كلمة واحدة تتوافق فيها عقائد
الاسلام والمسيحية واليهودية والوثنية ، وبث بين أصحابه
عقيدة كعقيدة الخلول يزعم من آمن بها أن جسده يستنزل
اليه الروح المتشبه به من الشهداء والقديسين ... وسبقه
أصحابه الى دعواه فزعموا له أنه تلبس بروح الامام على رضى
الله عنه فنادى من ثم بأنه هو المهدي الموعود ، وأنه صاحب
كتاب يسمى البيان هو المشار اليه في القرآن بقوله تعالى :
« الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان » وتلا على
الناس سورًا من هذا الوحي فعابوا عليه أخطاءه النحوية فتعلل
لها بعلّة توائم دعوته التي تحلل المؤمنين بها من قيود العقائد
السالفة ، وقال أن الكلمات لما علمها الله آدم عصت كعصيانه
فعاقبها الله وقيدها بقيود الاعراب ثم اذن له أن يطلقها فهي
بعد اليوم في حل من تلك القيود . . !

قال ميرزا عبد الحسين صاحب الكواكب الدرية في تاريخ
ظهور البائية والبهائية : ان حضرة الباب وضع كتاب البيان
ورتبته على تسعة عشر واحدا وقسم كل واحد الى تسعة عشر
بابا والآن نقول : ان أبواب هذا الكتاب تكون اذن من حيث

الجملة والمجموع ثلاثمائة وواحد وستين بابا وهذا العدد ينطبق
 على مجموع اعداد حروف (كل شيء) اذا استخرجت بحساب
 الجمل ، وقد خصص حضرته الواحد الاول لنفسه والثمانية
 عشر واحدا الباقية لكبار الصحابة لكل منهم واحدا ، ولما
 كان حاصل جمع اعداد حروف (ص) اذا استخرجت بحساب
 الجمل ثمانية عشر لذلك سمى أصحابه المشار اليهم حروف ص
 ونسب انتشار الحركة الروحية ونفخ الحياة الايمانية التى برزت
 وظهرت تحت ظل البيان الى تلكم الاصحاب ، ولكن حضرته
 لم يكمل بقلم كتابة جميع هذه الابواب وانما تمم كتابة احاد
 ثمانية وتسعة ابواب من الواحد التاسع فقط تاركا كتابة البقية
 الباقية . ويتضح لكل من يطلع على كتاب البيان ويتصفح
 ماكتبه الحضرة أن حضرته عهد بمهمة اتمام بقية الكتاب الى
 حضرة بهاء الله . وكذلك كل من طالع كتاب البيان ودرسه بامعان
 وسبر غور مطالبه تبين له أن الكتاب لا يرمى الى تشريع
 كامل مستقل بنفسه ولا الى احكام قائمة على حدة دونت لتقوم
 باحتياجات امة فى دورة كاملة من دورات الزمن ، وانما يفهم
 منه أمران : الامر الاول حل نظريات اعتقادية اسلامية ومشكلات
 مهمة اصولية من مثل الرجعة والساعة والقيامة والحياة والموت
 والجنة والنار ونحوها ، وغير خاف أن هذه المواضيع من حيث
 التفسير والفهم كانت منذ القدم موضع مباحثات علماء الاسلام
 ومجادلاتهم ومنشأ اختلافهم فى رأى . مثال ذلك أن جمهورا
 فهموا من القيامة انها حشر الموتى بأجسادهم الاولى بعد
 قيامهم من هذه الاجداث الترابية وذهب آخرون الى تفسيرها
 بظهور المهدي المنتظر واحتشاد الناس تحت لواء أمره ونيلهم
 الحياة الايمانية من الايمان به والايقاف بصدقه والتخلق بالاخلاق
 الفاضلة الالهية ، وكذلك اختلفوا فى معنى الرجعة ، فذهبت
 قبائل الى انها عبارة عن رجعة الائمة السابقين بأجسادهم ولم تزل

هذه القبائل تتصور ذلك الى اليوم ، وآخرون توصلوا الى خرق حجب الظواهر واماطة البراقع عن وجوه الحقائق والسرائر واعتقدوا أن المغزى من الرجعة هو رجوع الآثار والصفات التى كانت كالمعنى الذى يفهم من قول القائل عند امتداح فتى بالشجاعة ان فلانا رجعة رستم « وهو بطل الفرس المشهور »

وفى هذه النبذة مايكفى للوقوف على نهج الباب فى تأسيس قواعده وعقائده ، وهى مزيج من أسرار التصوف والتنجيم وتأويلات الباطنية ومحاولات التوفيق بما هو اقرب الى التلقيق

أما فرائض البابية فالصلاة عندهم ركعتان فى الصباح ، والكعبة عندهم مسجد فى شيراز ، ثم البيت الذى ولد فيه الباب بمدينة تبريز ، والصوم شهر من آخر نزول الشمس ببرج الحوت ليوافق عيد الفطر يوم النوروز أول الحمل ، ويجوز الزواج من اثنتين ولايجوز الطلاق ، وشرب الخمر والتدخين محرمان ، ولاخرج فى شرب الشاى والقهوة ، وهذه الاحكام تسرى بعدد حروف « المستفاث » بحساب الجمل الى نيف وألفى سنة ، ثم يظهر باذنه امام آخر يعيد النظر فى جملة تلك الاحكام

ونقل الدكتور ميرزا محمد مهدى خان فى كتابه مفتاح باب الابواب انه « كان من جملة دعائه امرأة فتية بارعة الجمال متوقفة الجنان فاضلة عالمة تسمى بأم سلعة (١) من بنات احد المجتهدين فى العجم وكانت متزوجة بمجتهد آخر طلقت نفسها من زوجها على خلاف حكم شريعة الاسلام وآمنت بذلك الرجل - أى الباب - عن غيب وكانت تكاتبه ويكاتبها فكان يخاطبها فى مكاتباته بقرة العين فلقيت بذلك ... ولما وقعت المحاربة بين

(١) قال الدكتور فى التعليق على هذان الصحيح ان اسمها زرين تاج .

البابيين وعساكر الدولة في مازندران جيشت جيشا قاداته مكشوفة الوجه وسارت أمامه طالبة أعانتهم ، وفي أثناء الطريق قامت في الناس خطيبة وقالت : « أيها الناس ! ان احكام الشريعة الاولى - اعنى المحمدية - قد نسخت وان احكام الشريعة الثانية لم تصل الينا فنحن الآن في زمن لا تكليف فيه بشيء . . . فوقع الهرج والمرج وفعل كل من الناس ماكان يشتهي من القبائح ثم قبض عليها والبست البرقع جبرا وحكم عليها بأن تحرق حية ، ولكن الجلاد خنقها قبل ان تلعب النار بالخطب الذي اعد لاحراقها »

ويختلف في نسب الباب ، ولكنه على الاشهر ينمى الى أب بزاز يسمى ميرزا رضا وأم تسمى خديجة ، وكان مولده أول المحرم سنة ١٢٣٥ الهجرية ، ومات أبوه قبل فطامه فرباه خاله ميرزا سيد على التاجر وعلمه الفارسية والعربية واتقان الخط . اما اتباعه فيزعمون انه لم يتعلم وانما كان أميا يكتب بالهام من الله ، وقد شغل في صباه بالرياضات الصوفية وتسخير روحانيات الكواكب ، وقيل انه كان يصعد في بلدة أبو شهر الى أعلى البيت عارى الرأس ويمكث في الشمس في الهجرة الى العصر حيث تبلغ الحرارة درجة اثنتين وأربعين (سنتجراد) ثم تعتريه من جراء ذلك نوبات ويعيد الكرة اباما على هذه الحال حتى أشفق خاله من عقبي هذه الرياضات الشاقة فأرسله الى كربلاء أملا في شفائه على أيدي الأئمة والمجتهدين ، ولكنه أمعن هنالك في رياضاته وتراءت له الاشباح في خلواته ، فكاشف أناسا صدقوه لانهم كانوا على رقبة الامام الموعود ، ثم استفحل أمره واجتروا اتباعه على نشر دعوته وتهديد من يخالفهم في معتقده ، وهبت الثورة باسمه في زنجان ومازندران وتبريز ، وعرض أمره على العلماء فتخرج بعضهم من الحكم بقتله لعله أن يكون مخالطا في عقله غير مسئول عن

فعله ، وأفتى غيرهم بوجوب القتل اتقاء للفتنة ، فسجن ثم قتل (في سنة ١٨٥٠ م) وحدث عند اطلاق الرصاص عليه في زعم البايين أنه ظل واقفا لان الرصاص قد أصاب قيوده ولم يصبه في مقتل ، ولكن شهود الحادث من غير البايين يقولون أنه مات وأقيت جثته في خندق فأكلتها السباع

وكان الباب قد أوصى قبل اعتقاله باتباع خليفته ميرزا يحيى الذي نعتة بصبح أزل ، فانتقل صبح أزل الى بغداد ومعه أخوه ميرزا حسين على الملقب بالبهاء ، ثم اختلفا فانقسمت الطائفة الى فرقتين : تعرف احدهما باسم الازلية وتعرف الاخرى باسم البهائية ، ونشط كلاهما للدعوة في البلاد الاسلامية وغيرها ولم يبق من اتباعهما في العصر الحاضر غير القليل

٢ - مهدي السودان

أشرنا فيما تقدم الى علامات كثيرة من علامات التوقع والاستعداد في العالم الاسلامي عند أواسط القرن التاسع عشر بعد اصطدام الشرق بغزوات الاستعمار ، ونضيف الى هذه العلامات علامة أخرى في هذا الصدد نلمحها في التجاوب السريع بين بلدان المسلمين لكل خبر من أخبار الدعوات والحركات العامة ، وبخاصة ماكان من أخبار الثورة والتغيير ، فلم يكن داعية البابية يلقي مصرعه حتى تسامع بهذا المصير مسلمو الهند وأفريقية الشرقية والوسطى على التخصيص ، وهي قديمة الصلة ببلاد ايران لاتنقطع عنها أخبارها من صدر الاسلام ، وقد ترجع هذه الصلة الى حقبة طويلة قبل البعثة المحمدية

ولو كان الباب قد انتصر في مغاركه مع جند الحكومة الايرانية لقد كان هذا الانتصار خليقا أن يوصل الطريق على من يطمحون الى ادعاء المهدي بعده ، ولكن خذلانه على تقيض ذلك قد فتح الطريق في الهند وأفريقية ومواطن شتى لمن يطمحون الى نصيب

يكون خيراً من نصيبه ، ويؤمنون في سريرتهم بصلاحهم وصلاح
أوقاتهم للقيام بالرسالة المهدية

وكان أقوى من تصدى للقيام بالرسالة المهدية بعد الباب
« محمد أحمد » الذي اشتهر باسم المهدي السوداني ، وبلغت
النظر في هذا المقام ان دعوته الاولى كانت باسم الامام الثاني
عشر الذي يترقبه الشيعة الاماميون ، وقد نشأ بين اهل
الطريق وقرأ اشراط الساعة في كتب محيي الدين بن عربي
واطلع على قول ابن حجر والسيوطي ان من هذه العلامات
خروج صاحب السودان ، ولم يكن في السودان يومئذ من يشك
في اقتراب الساعة لسوء الحال وضيوع الفساد واجترأ المفسدين
على الجهر بمنكراتهم حتى اجترأ بعضهم على زفاف الغلمان
بدلاً من النساء ، فلما انهزمت الدعوة المهدية في ايران تهيات
الاذهان في البلدان الاخرى لقبول دعوة غيرها يكتب لها
النجاح ، ووافق ذلك سخطا عاما بين كبار الزعماء الذين كانوا
يتجرون بالنخاسة وبين العامة الذين ارهقتهم الضرائب وبين
التجار الذين كسدت مرافقهم لاضطراب المواصلات وتتابع
المنازعات بين مصر والسودان والحجشة فتهيات العقول للاصفاء
الى دعاة الاصلاح او دعاة التغيير كيف كان

وينتسب المهدي الى الحسن بن علي بن ابي طالب رضي الله
عنه ، ويقال ان اجداده الاقربين اقاموا باقليم المنيا زمنا بعد
مقامهم الى جوار القسطنطين ، ثم انتقل بعضهم الى بلاد النوبة ،
ثم استقروا في دنقلة ، ثم انتقل ابوه عبد الله الى الخرطوم
فعمل فيها بصناعة السفن وتوفي بقرية كرري الى جوار
أم درمان

وقد ولد له ابنه محمد من زوجته آمنة (سنة ١٨٤٥)
وفي مكان مولده خلاف ، الا انه على القول الاشهر قد ولد
بجزيرة لبب ومات ابوه وامه وهو صغير

ودرج الطفل الصغير في موطن يكثر فيه أبناء الطريق وهو يطيل التفكير في يتمه وفي المشابهة بينه وبين النبي عليه السلام باسمه واسم أبيه وأمه ، فمال إلى النسك والعبادة وحفظ القرآن ودرس الفقه وطرفا من التاريخ ، وأخذ نفسه بالرياضة الصارمة فاجتنب الملاهي وحرم على نفسه ما يستباح من غشيان مجامع الطرب والفناء وكانت صرامته هذه مثار الخلاف بينه وبين أستاذه الشيخ محمد الشريف أحد مشايخ الطريقة السمانية لأنه سمح لتلاميذه ومريديه بالفناء والرقص في الاحتفال بختان ابنائه ، فانكر عليهم محمد أحمد هذه المجانة . : . وغضب عليه أستاذه ففارقه ولاذ بشيخ آخر من شيوخ الطريق بجزيرة أبا إلى أن استقل بالمشيخة وناهز الأربعين ووافق ذلك لقاءه للشيخ عبد الله التعايشي من المستغلين بالتنجيم فطابق ما عنده من علامات الحروف والحساب على ظهور المهدي وتبادلا التشجيع والتعاون على بث الدعوة باسم المهدي الموعود ووزيره « صاحب الخرطوم » كما جاء في بعض النبوءات

وبعد وقائع بينه وبين جنود الحكومة تم له الظفر بالحملة المعروفة باسم حملة هكس وهي حملة لم يكن لها نظام ولا مدد من الذخيرة والمال بل كان جنودها يجمعون جزافا من المجندين المرفوضين في القرعة العسكرية وكانت الحكومة البريطانية تعوق مصر عن إرسال المال اللازم والعدة الضرورية لتسيير الحملة إلى كردفان ، فلم تستطع أن ترسل لقائدها غير أربعين ألف جنيه من المائة والعشرين ألفا التي طلبها ، وأبرق اللورد جرانفيل من لندن إلى القاهرة في السابع من شهر مايو سنة ١٨٨٣ م يعلن : « أن حكومة جلالة الملكة غير مسئولة بحال من الأحوال عن حملة السودان التي تولتها الحكومة المصرية بأمرها ولا هي مسئولة عن تعيين القائد هكس أو أعماله » ونشب الخلاف بين قادة الحملة لقلة وسائل النقل وصعوبة التخلف

في وقت واحد بعد أن تسامح أهل السودان جميعا بتأهب الحكومة لتجريد حملتها منذ عدة شهور ، واستبد هكس براهه في اختيار الطريق مع ندرة الماء وارتياح الخبراء بأمانة الادلاء ، فوقع الجيش في كمين بعد كمين ثم فوجيء بضغفى عدده من الدراويش وهو على غاية الجهد من العطش والجوع والتعب فلم يقات منه غير آحاد معدودين ، وكان عدد الدراويش أكثر من عشرين ألفا قتل منهم بضع مئات وبلغ القتلى من الحملة المصرية نحو عشرة آلاف

كانت هذه الكارثة ذريعة لاكره الحكومة المصرية على اخلاء السودان ، فانحصرت القوة التي رفضت الاخلاء بقيادة جوردون في مدينة الخرطوم ثم انقطع عنها المدد تنفيذا لسياسة الاخلاء وتمهيدا لاعادة فتح السودان باسم جديد ، واضطرت المدينة بعد اليأس من النجدة الى التسليم

وقد تقدم ان القوم عاشوا ردحا من الزمن يترقبون ظهور المهدي المنتظر ويتخيلون أنهم يلمسون حولهم أشراط الساعة من عموم الفساد وسوء الحال وغلبة الكفر على الايمان ، وقد شهدوا انتصار صاحبهم على الجيوش التي حسبوها من قبل قوة لاتغلب فكان هذا حسبهم من دليل على صدق دفواه ، ومن بقي من دهمائهم منكر لهذه الدعوى فانما كان ينكرها لانه ياتم بامامة لا تقبلها ولا تقول في علامات المهدي بقولها ، ومنهم اتباع الميرغنية والسنوسية والتجانية ، وبعضهم كان يستمع الى فتاوى العلماء خارج السودان بانكار هذه المهدي

ويبدو ان صاحب الدعوة قد توطدت في نفسه الثقة برسائله مما عاينه حوله من دلائل الايمان به وانتظار الفلاح على يده ، فأكثر من كتابة الكتب الى الأمراء والملوك يدعوهم الى تصديقه وينذرهم عاقبة الكفر به ، واشفق أن يلتقى أتباعه خارج السودان بمن يشككهم فيه فحظر الخروج وحزم الذهاب

الى الحج وأقنعهم بكفاية الحج الى مقامه ، ومن أمثلة كتبه التى كان ينشر بها رسالته قوله فى منشور عام : «... أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل لى على المهدي علامة وهى الخال على خدى الايمن ، وكذلك جعل لى علامة أخرى تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها أصحابى وينزل الرعب فى قلوب أعدائى فلا يلتقى أحد بعداوة الا خذله الله ... هذا وقد أخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن من شك فى مهديتك فقد كفر بالله ورسوله ، كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، وجميع ما أخبرتكم به من خلافتى على المهدي فقد أخبرنى به سيد الوجود صلى الله عليه وسلم يقظة فى حالة الصحة وأنا خال من الموانع الشرعية لا بنوم ولا جذب ولا سكر ولا جنون ، بل متصف بصفات العقل اقفوا أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر فيما أمر به والنهى عما نهى عنه ... وليكن فى معلومكم أنى من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأبى حسنى من جهة أبيه وأمه ، وأمى كذلك من جهة أمها ، وأبوها عباسى ... والعلم لله ان لى نسبة الى الحسين ... ! »

ولم يطل بقاء محمد أحمد بعد سقوط الخرطوم فأصابته حمى التيفوس وتوفى صيف سنة ١٨٨٥ ، وكانت آخر كلماته « .. ان النبى صلى الله عليه وسلم اختار الخليفة عبد الله الصديق خليفة لى وهو منى وأنا منه فأطيعوه ما أطعتمونى .. استغفر الله »

(٢) القاديانى

كان من أسباب ذبوع الاخبار عن مهدي السودان فى البلاد الاسيوية ، ولاسيما الهند والصين ، انه هزم القائدين هكس وجوردون ، وكان أولهما من قواد الجيش الانجليزى الذين

اشتركوا في قمع الثورة الهندية سنة ١٨٥٧ وثنائهما من الضباط
الدوليين الذين اشتركوا في تدريب الجيش الصيني على النظام
الحديث وقمع الثورة على حكومة بكين

فلما قتل هكس وجوردون في حروبهما مع مهدي السودان
طارت الانباء بوقائعه الى كل مكان ، وخشيت الحكومة البريطانية
عاقبة الايمان به ولما تهدأ عقابيل الثورة في الهند - فكان هذا
على الأرجح باعثا من بواعث عطفها على الحركة القاديانية الهندية
عسى أن يكون الايمان بصاحبها ميرزا غلام أحمد صارفا للقوم
عن تصديق المهدي السوداني ومعززا للعقائد الحديثة التي كان
يبيثها بين أتباعه وقوامها اسقاط فريضة الجهاد بالسيف وإيجاب
الجهاد بالاقناع والبرهان

وقد كان مولد ميرزا غلام أحمد سنة ١٨٣٩ بقرية قاديان
من أسرة عريقة آلت بها الحال الى الخمول والفاقة بعد الثورة ،
فتعلم في مكتب القرية وعمل في وظيفة حكومية صغيرة ، وشب
وهو يسمع الاقاويل عن كرامات أبيه ومنها أنه كان يعرف
المولود من أبنائه قبل أن يولد ويسميه باسمه ، وقد سمى
أبنائه جميعا بأسماء النبي والقبائل الأمراء ، فمنهم سلطان أحمد
ومحمود وبشير أحمد وولي الله ومبارك أحمد ، وبنت تسمى
بعده أسماء من أسماء نساء آل البيت

نشأ الغلام منقبضا عن الناس جانحا الى العزلة ومطالعة
الاسفار القديمة من كتب الشيعة والسنة وكتب الاديان الاخرى
وقد لقي في سياحاته من أنبأه بموافقة أحواله وأحوال زمنه
لعلامات المهدي المنتظر وجعل من هذه العلامات خسوف القمر
وكسوف الشمس وانتشار الوباء وخروجه من المشرق وسبق
الدعاة الكذابين لدعوته ، ولم يقصر علاماته على الكتب الاسلامية
بل ذكر منها ما جاء في الاصحاح الحادي والاربعين من سفر
اشعيا ، وفي « الجاماسبي » من كتب المجوس ، فلما حدث

الخشوف والكسوف في شهر رمضان (سنة ١٨٩٤) الميلادية
كانت هذه الآية عنده وعند أتباعه برهاناً من الله على أنه هو
صاحب الزمان الموعود

وقد زعم أنه المسيح المنتظر وألف كتاباً سماه « البراهين
الإحمدية » على حقيقة كتاب الله القرآن والنبوة المحمدية وفسر
ظهور المسحاء الذين يظهرون بعد الإسلام بأنهم هم الأولياء
ورثة الأنبياء ، وقال أنه محدث . ولم يثبت أنه ادعى النبوة
وإنما دعواه على قول الأكثرين من أتباعه أنه مجدد القرن
الرابع عشر للهجرة ، وقد جاء في باب إزالة الأوهام « لا ادعى
النبوة وما أنا إلا محدث » وقال في منشور إبريل سنة ١٨٩٧
« لعنة الله على كل من ادعى النبوة بعد محمد »

ومدار الرسالة القاديانية كلها على التوفيق بين الأديان وتدميم
السلام بين الأمم ، وفي كلام القادياني ما يشبه القول بالحلول
فهو يتلبس بروح السيد المسيح وروح كرشنا رب الخير عند
البراهمة كما يتلبس بأرواح غيرهم من الصالحين ، وقد توفي
سنة ١٩٠٨ فانقسم أتباعه إلى فريقين : فريق يسمى الإحمدية
وهم الذين يؤمنون بأمامته ولا يؤمنون بنبوته ، وفريق يسمى
القاديانية وهم القائلون بنبوته وحجتهم التي يقابلون بها عقيدة
الإسلام في ختام النبوة بعد البعثة المحمدية أن « خاتم » التي
وردت في القرآن الكريم إنما وردت بفتح التاء بمعنى الزينة . .
وينكرون قراءة ورش بكسر التاء متشبثين بقراءة حفص عن
طريق عاصم ، ولكن الفرقة الأخرى تورد من كلامه ما يبطل
دعوى النبوة على غير معنى المجاز وتستشهد بآخر كلامه في
حقيقة الوحي ونصه بالعربية « . . وما عنى الله من نبوتى إلا
كثرة المكالمة والمخاطبة ولعنة الله على من أراد فوق ذلك أو
حسب نفسه شيئاً أو أخرج عنقه من الربطة النبوية ، وإن
رسولنا خاتم النبيين وعليه انقطعت سلسلة المرسلين فليس

من حق أحد أن يدعى النبوة بعد رسولنا المصطفى على الطريقة المستقلة وما بقى بعده الا كثرة المكالمة وهو بشرط الاتباع لا بغير متابعة ... »

ويبدو أن الفرقة القاديانية كانت اقرب الفرقتين الى هوى الدولة البريطانية ، لانها لم تكن تعارض الحكومة ولم تتورع عن اشتراط الطاعة لها على من يدخلون في زمرتها ، وقد كتب أحدهم في كتاب فارسي باسم « تحفة شاه زاده ويلز » يقول فيه وهو يدعو ولي العهد الى الاسلام : « ... ان هذه التجفة تقدم اليك من الجماعة التي صبرت على مصائب شتى ثلاثين سنة أو اكثر على أيدي أعدائها وذويها من جراء ولائها لجذتك الموقرة الملكة فكتوريا ثم جدك العظيم الامبراطور السابق ادوارد السابع ثم والدك الجليل الامبراطور الحالي ، ولم تكن قط طالبة مكافأة حكومية ومازال منهج هذه الجماعة من يوم تأسيسها أن تطيع الحكومة القائمة وتنكب عن جميع انواع الفتنة والفساد وأن مؤسسها عليه السلام كان وضع شرطا من شروط المبايعة التي لا تسمح لاحد أن ينضم اليها الا على عهد العمل بها وهو أن تطاع الحكومة القائمة »

ويعتذر اصحاب هذه السياسة بزعاية الضرورة والتوسل بسلطان الدولة الى تيسير الدعوة ، ولكنها قوبلت بالنقد الشديد من اتباع القادياني أنفسهم بعد نشاط نهضة الاستقلال وقيام الدعوة الى نصرته الخلافة ، وكان لهذا الانقسام السياسي اثره الاكبر في تفرق اتباع الطائفة الى اكثر من فرقتين ، على كونهم جميعا لايزيدون على مائة ألف أو نحوها ، ولهم مع هذا التفرق ايمان وثيق بصدق دعوتهم ودأب عظيم على نشرها في العالم بمختلف اللغات

تعقيب

اولئك المهديون الثلاثة أنماط متقاربة للدعوة المهدية في عصر الاستعمار ، يتشابهون أو يختلفون على حسب ما أحاط بهم في بلادهم من دواعي الاستعمار وموانعه ، وعلى حسب المذهب الذى توارثوه من أسلافهم ، والتربية التى هيات أفكارهم وعقائدهم ، فهم أبناء ماضيهم وحاضرهم فى مواضع الشبه بينهم ومواضع الخلاف ، ولا يلوح لهم فى الوقت الحاضر مستقبل يرتبط بمستقبل الاسلام غير ما انتهوا اليه

ونحن كلما امعنا فى استقصاء سيرتهم وما تأثروا به من احوال زمانهم - بدا لنا ان التاريخ يظلمهم اذا وصفهم بالدجل المتعمد وفرغ منهم على هذه الصفة ، فانهم على الاغلب الاعم من ظواهرهم مسوقون الى دعوتهم على الرغم منهم ، وربما انساقوا اليها وهم مؤمنون بها ثم دار بهم دولا ب الحوادث دورته التى لا فكاك منها ، فاستعصى عليهم الفكاك من وثاقه وأصبح الرجوع عن الدعوة بعد ذلك أخطر عليهم وعلى أتباعهم من المضى فيها

يفيض العصر الذى ينشأون فيه بحوافز الترقب والامل واليقين بالتغيير الذى لامحيص منه ، وقد تكون عوامل هذا التغيير موصوفة لديهم بارزة لهم فى الصورة التى يتخيلونها كما تبرز صور السحاب لمن يحاول أن يرتق فتوقها على مثال مرسوم

وبين هذه الهواجس والقلائل تنمو النفوس القلقة المتشوفة

فيتفق حتما لزاما أن يكون منها من يتعلق بالغيوب ويروض عقله على استطلاع خفاياها وتطول مناجاته لنفسه وتساؤله عن واجبه ، فيخطر له أنه مندوب لامر جناس يروقه أن يصبح أهلا له ويخيفه أن يكون هو المقصود به ثم ينكل عنه خوفا من تبعاته وأهواله ، وكلما طالت به المناجاة والتساؤل تمكن خاطر منه وتلمس الخلاص من شكوكه بالمزيد من الرياضة والاستعداد عسى أن يلهمه الغيب سبيل الرشاد ويجلو له حقيقة الامر الذى هو فى ريب منه . واذا احتجبت عنه آيات الالهام فترة فليس بالمتعجب فى هذه الحالة بين الامل والخوف أن يذكر فترات الحيرة التى مرت بالرسل الكرام ويحسبها من ضروب الامتحان والتمحيص فى انتظار الموعد الموقوت ، وقد يصادفه بين هواجس هذه الحيرة من ينفضها عنه ببارقة رجاء وكلمة تشجيع فيتشبث بها ويستصعب اهما لها ، وما أسرع النفس الى التشبث بأمثال هذه العلالة فى أمثال هذه المآزق والازمات

ثم يخطو الخطوة الاولى فلا يعدم من يخطوها معه ويسبقه الى مابعداها ، ثم تدفعه المصادفات تارة وتصدّه تارة حتى يتوسط الطريق وتنسد وراءه شيئا فشيئا منافذ الرجوع ، أن فكر فى الرجوع . ولن يلبث بعد ذلك أن يعلق بدولاب الحوادث فتوحى اليه امرها بحكم الضرورة قبل أن يوحى اليها ، فان خامره شك فلعله يحسب فى هذه المرحلة أن المصلحة فى التقدم اكبر وأضمن من المصلحة فى التراجع والنكوص ، ويزعم لضميره أنه انما يريد الخير ولا يحاسبه الله الا بما نواه

على أن العبرة من هذه الحركات جميعا أن ضجتها أعظم جدا من جدواها ، وأنها تجشم الالم كثيرا ولا تنفعها ببعض ماتجشم من أهوالها ومتاعبها ، وتنجلي الفاشية وقد حبطت الحركة فى أول أغراضها وأضافت نحلة جديدة الى النحل التى أرادت أن

تمحوها وتدمجها في كيائها ، وقد تنشعب الحركة شعبا شتى بين أتباعها ومريديها وهي لم تتحرك أول الامر الا على أمل التوفيق بين النحل التي تنازعت ضمائر الناس قبلها

ولو وضعت كل هذه الدعوات في الميزان لرجحت عليها جميعا دعوة التعليم والتقويم وهي اقلها ضجة واطولها امدًا وأبقاها ثمرة .. ففى كل ما أجملناه من الدعوات ونهضات الإصلاح لم ينتفع الاسلام بمنفعة محققة اثبت وأعظم من منفعة التعليم على هدى العقيدة النيرة والخلق المكين ، ولم يخدم الاسلام أحد في العصر الحديث كما خدمه المعلمون من طراز أحمد خان وجمال الدين ومحمد عبده ، ويشبههم في النفع بين أهل البادية دعاة السلوك الحسن والاستقامة من اصحاب الطرق المخلصين

وخير خدمة للاسلام تجلت لنا في ضوء تجاربه من مطلع القرن التاسع عشر الى منتصف القرن العشرين هي الخدمة التي تكفل للمسلم أن يؤمن بعقيدته ولا يتخلف عن عصره في علومه ومعارفه ومقتضيات أعماله ، أو هي خدمة التوفيق بين الدين والعلوم التقدم ، وغاية ما نلاحظ على اساليب التوفيق أننا لا نستصوب التعجل بتفسير الكتاب على الوجوه التي تتراءى لأول وهلة من نظريات العلم وفروض العلماء المحدثين ، لان النظريات تتبدل وشواهد الواقع تتراءى في كل حقبة على غير صورتها في الحقبة التي تسبقها أو التي تليها ، ومثال ذلك تفسير السماوات السبع بالسيارات السبع في المنظومة الشمسية ، وقد ينكشف كما انكشف فعلا بعد سنين أن السيارات والنجومات عشر ولا حصر للشهب الصغار التي تشرق وتغرب في هذا المدار

وعبرة الدعوات جميعا منذ أواسط القرن التاسع عشر انها تنحصر في كلمتين قال بهما رائد الهند وامام مصر ، وهما العلم والايمان

الدعوات ونهضة الإصلاح في منتصف القرن العشرين

تعدد المقاييس التى يقاس بها تقدم الامم ، ويأتى فى طبيعتها
مقياس الحرية ومقياس الحضارة ومقياس الحالة النفسية

وبهذه المقاييس جميعا تبدو دلائل التقدم على الامم الاسلامية
عند المقابلة بين ماكانت عليه فى منتصف القرن التاسع عشر
وما صارت اليه فى أواسط القرن العشرين ، وتبدو هذه الدلائل
كذلك بارزة بينة عند المقارنة بين ماهى عليه الآن وبين ماكانت
عليه فى أوائل القرن منذ خمسين سنة

فالمسلمون الذين يعيشون فى بلاد مستقلة أو شبيهة بالمستقلة؛
يزيدون على خمسة أضعاف المسلمين الذين يخضعون لحكم
دولة أجنبية

ومهما يكن من شأن الاستقلال الواقعى أو الشكلى فمن الغباء
أن يقال أن الاستقلال كعدم الاستقلال كأننا ماكان ، ومن الخدلة
أن يستشهد على ذلك بخضوع الامم المستقلة كثيرا أو قليلا
لسلطان الدول القوية بحكم الضعف أو الاضطراب

فالصبي القاصر يخضع لوصاية وليه ، والرجل الراشد
لا يفعل كل مايريد ولايزال فى حياته الراشدة خاضعا للذى
السلطان عليه بحكم الضعف أو الاضطراب ، ولكن لايقال من أجل
هذا أن الصبي والرجل الراشد سواء لانهما ، كليهما ، لايعملان
كل مايريدان

وقد خرج معظم الامم الاسلامية من ربة السيادة الاجنبية
وأصبحت لها مشيئة الى جانب مشيئة الاقوياء . أو أصبح

الاقوياء مضطرين الى التماس الحيلة والذريعة للتوفيق بين المشيئتين ، وهذه خطوة في الطريق لابد منها قبل مايليتها من الخطوات

اما الامم التي لاتزال خاضعة للسيطرة الاجنبية ففي كل منها نهضة قومية ووعي متيقظ يقلق المسيطرين عليها ، وتنبئنا حوادث الماضي القريب ان السيطرة ترجع الى الوراء مع الزمن ، ولا ترجع اليقظة بعد المسير ولو الى غير شوط بعيد

في آسيا

في آسيا ظفرت اندونيسية باستقلالها ولا تزال امامها مشاكلها الكثيرة ، ومنها ازدحام السكان وشيوع الامية وحاجة الامة الى الخبراء الكثيرين في الادارة وتدبير الثروة وانفصال بعض اجزائها وتنازع الآراء والاحزاب على سياستها

وقد ظفرت الباكستان بكيانها السياسي ولا تزال امامها مشاكلها الكثيرة ، ومنها تباعد شطريها وحاجتها الى موارد الماء في كشمير ، وخلافها مع الهند ومع الافغان

وفي الصين عشرات الملايين من المسلمين متيقظون يشعرون بخطر واحد وحقوق واحدة ، وعلى التخوم بين الصين والهند ملايين آخرون خاضعون لسلطان الدولة الروسية يخشون على ضمائرهم كما يخشون على ديارهم ومعالم اوطانهم ، وتقوم الافغان وايران مستقلتيتن الى جانب هذه الامم وفي كل منهما كفايتها وفوق كفايتها من مشكلات السياسة والمعيشة

ولا خطر من جميع هذه المشكلات

ولن يجيء اليوم الذي تستريح فيه الامم من امثال هذه المشكلات او تعيش فيه حقبة من الزمن بغير مشكلة كبيرة او صغيرة

انما الخطر الاكبر امة بغير ايمان وبغير معرفة ، فاذا بقي

للأمة إيمانها ومغزفتها فكل ما أصابها بعد ذلك هين مأمون
العاقبة بعد حين

وليس الخطر كله من الاعداء ، وليس الأمان كله من الاصدقاء
أو الأبناء

فقد يجيء الخطر على الإيمان من غلاة التجديد ، وقد يجيء
الخطر على المعرفة من غلاة الجمود ، وقد يتقابل هؤلاء وهؤلاء
على قوة واحدة فيسرى الى الأمة شلل لا تنفع معه معرفة
ولا إيمان

ومن وجوه الرجاء ، أو العزاء ، بين المشكلات الجسام التي
تستقبلها الامم الاسلامية انها لاتحمل العبء كله ولا تنفرد
بالعمل على دفعه أو تخفيفه ، لان سنن الجوارث ان تأتي بالنجدة
كما تأتي بالعقبة ، وأن العامل لا يئأس من مفاجآت الغيب وان
كان لأيام الفترات من تلك المفاجآت

لقد كان على أندونيسية شوط بعيد مع هولندة وشبكة
الاستعمار التي تمكن لها في مستعمراتها ، ثم ابتليت هولندة
باليابان فأخرجتها ، ثم ابتليت اليابان بالهزيمة فخرجت مكرهة
وتركت سلاحها للشوار في سبيل الحرية ، ثم اضطر المنتصرون
من الأمريكيين والانجليز الى مدارة الشعوب الآسيوية ونفس
بعضهم على بعض ان تخلف هولندة على تلك الغنيمة الضخمة ،
فاذا بالاستقلال يسعى الى أندونيسية كما سعت اليه ، ثم تبقى
الكفاية لمشكلات الحكم والمعيشة وهي لاتعضل قوما كابناء تلك
الأمة كادوا أن يستأثروا بالتجارة والملاحة في بحار الهند قبل
زحف المستعمرين عليها

وكان على الباكستان شوط بعيد مع الدولة البريطانية
والكثرة البرهمية ، ثم تغير الموقف في القارة الآسيوية بعد
هزيمة اليابان وبعد كساد التجارة البريطانية في المشرق وبعد
التزاحم الجديد بين الروسيين والأمريكيين على القارة في شرقها

الاقصى ، فاذا بالاستقلال يسعى الى الباكستان كما سعت اليه ، ثم تبقى مشكلة كشمير وتبقى بازائها صناعة في الهند تتوقف على الباكستان ، وصناعة في الباكستان تتوقف على الهند ، ومصالحة مشتركة تلجىء الجانبين الى المصالحة ، وخطر من جانب الصين الشيوعية يفتح الاعين هنا وهناك

وثمة عامل جديد في سياسة الدول القوية لم يكن له خطر قبل منتصف القرن العشرين ، وذلك هو عامل العقيدة في المجتمع

فلم تكن دولة من دول الاستعمار تبالي شيئا بعد غلبتها العسكرية والسياسية على بلد من البلاد المستضعفة . ولكنها اليوم تبالي مايعتقده الشعب وتعلم أن هذه العقيدة عامل هام في الترجيح بين المستعمرين من كتلة المشرق وكتلة المغرب . . وقد تعودوا المبالاة بالاسلام وماتحتويه عقيدته من المقاومة او المسالمة للمذاهب الاجتماعية ، فليست السطوة بقوة السياسة او بقوة السلاح هي كل ماتباليه الدول الكبرى في منازعاتها ، وقد يخافون من هذه السطوة أن تدفع بالمسلمين الى جانب وتصرفهم عن جانب ، فيبنون علاقاتهم بهم على هذا الاساس والفرق بين الكتلتين أن الامريكيين والانجليز لا يستطيعون أن يجعلوا الامة المسلمة امريكية او انجليزية . أما الكتلة الشرقية فاذا جعلت امة من الامم شيوعية لم تكترث بعد ذلك بجنسها وعقيدتها ، لان الشيوعية تبطل الاوطان والاديان

دولتان قديمتان

وفي آسيا دولتان قديمتان هما ايران وتركيا ، وكلتاها في شقة الصدام بين الكتلتين ، يحميها هذا الصدام أن تقعا في قبضة هذه أو تلك ، ولكنها حماية مانعة وليست بالحماية العاملة ، فلا بد من سند لها في بنية الامة ، ولا بد من قيام هذا

السند من الايمان والمعرفة

ويقال اليوم ان تركية تعود الى الدين بعد ثورة مصطفى كمال على تقاليدھا الدينية ، ولكن تركية في الواقع لم تفارق الدين حتى يقال انها تعود اليه ، وكل ماحدث انما هو تغيير في مراسم الحكم لم يتغلغل قط الى ضمير الامة ، وقد يكون الاعتدال بين ثورة مصطفى كمال وتقاليد الجامدين اصلح لتركية من ايام الخلافة المتداعية وايام الثورة الكمالية الاولى

اما الامم العربية فقد وضع لها الغرب اسفينا في صميم بنيتها يوم اقيمت بينها دولة اسرائيل ، ولن تؤمن العقبي ما بقي فيما بينها هذا الصدع الوبيل تتسلل منه المفاسد والمطامع الى جوفها

ولكن اسرائيل على قوة الدول التي تسندها لا تعيش ولا تتمكن في موضعها بين امم تقاطعها وتبعد المسافة بين مواردها ومصادرها ، وباب الامل في هذا الجانب ان المصير لا يعدو حالة من حالتين : اما ان تسيطر اسرائيل على امم العرب ونهضتها ، واما ان تنخلد دون هذا المطلب العصي فتنهار أو تقبع في اضيئ حدودها ، واصعب هاتين الحالتين سيطرة اسرائيل على امم ناهضة تتقدم ولا تنكص على اعقابها

في افريقيا

والاسلام في القارة الافريقية يشغل شواطئها على البحرين الابيض والاحمر وعلى المحيطين الاطلسي والهندي . فنكل الشواطئ الافريقية يقطنها مسلمون ماخللا الجانب القريب الى الجنوب ، ويتخللها المسلمون في جوف الصحراء الكبرى كما يتخللونها في اواسطها من السودان الى اعالي النيل

وتنصب قوة الاستعمار كلها على القارة الافريقية في الوقت الحاضر ، فعلى الاسلام عبء كبير ينهض به في وجه هذا الاستعمار

ومهما يكن من تفاوت القوى المتنازعة في هذه القارة فليس السؤال هنا : من يقدر على الغلبة ؟ بل هو من يقدر على البقاء بعد طول الصراع ؟

ونخال أن الجواب لا يقبل الخلاف ، فلن يبقى المستعمرون . ويزول أبناء البلاد ، ولن يستطيع المستعمرون مهما عملوا أن يخرجوا أبناء البلاد عن أجناسهم وعقائدهم ليدمجوهم في غمارهم افريقيين « مغترين »

وقد تطول المسافة على الشعوب الافريقية قبل بلوغ المرحلة التي تخرج الاستعمار ، ولكن الاستعمار يحمل من جرائم الفناء ما يعاون المنكوبين به على الخلاص منه ، وليس اللازم أن يتساوى الافريقيون والمستعمرون في العلم والثروة والحول والحيلة ، وانما اللازم ان يضيق المستعمرون بقهر الافريقيين

ومصر - في طليعة الامم الافريقية - تمضى قدما الى هذه المرحلة وتقترب منها حقبة بعد حقبة منذ أوائل القرن العشرين . فلم تمض من هذا القرن عشر سنوات متعاقبة دون أن تتدرج فيها من حالة الى حالة أفضل منها ، فخرجت من السيادة العثمانية ثم خرجت من الحماية البريطانية ثم تخلصت من حكم الملكية الرثة التي صار بها الزمن الى أسوأ أطوارها في عهد فاروق ربيب الفساد ، واذا اطردت مراحلها عشر سنوات بعد عشر سنوات على هذه الخطى فليس الرجاء في مرحلتها التي تقود فيها القارة الافريقية بعيد

وعلى شواطئ البحرين الابيض والاحمر أمم من هذه القارة تتيقظ وتتحفز وتوشك أن تبلغ المرحلة التي تعنت فيها الاستعمار كما يعنتها ، ومن آمالها وحدة المغرب ووحدة وادي النيل ، وأيا كان مال هذه الآمال في عالم السياسة فمناط الامر كله ان يتم لها حظ الامم المستقلة في المعرفة والكرامة ، وكل وضع من أوضاع السياسة بعد ذلك مرضى ومقبول

في نظر الغرب

منذ القرن الاول للهجرة لم يعرف العالم حقبة من حقبة التاريخ خلا فيها الغرب ممن يهتمون بالاسلام على نحو من الانحاء ، ولكن الذي يعنينا في هذه العجالة هو اهتمام الغرب بالاسلام في عصر الاستعمار ، وقد كان على الاغلب اهتماما يروده الباحثون من وجهة النظر العسكرية او السياسية او الاقتصادية او الدينية ، فلم يهتم الغرب بالاسلام قط من وجهة نظر عامة او من وجهة نظر علمية في القرن الثامن عشر او القرن التاسع عشر ، وانما التفت الغربيون الى دراسة الاسلام من هذه الوجهة - وجهة النظر العلمية - منذ اوائل القرن العشرين ، وهي مع هذا لا تخلو من غرض وان تخفى الغرض فيها أحيانا وراء نقاب

فمن اواخر القرن التاسع عشر الى اليوم تقوم الجامعات والمعاهد في هولندا وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة لدراسة احوال المسلمين واسرار العقيدة الاسلامية على أضواء العلم الحديث ، وينشئ بعض الجامعات كراسي لهذه الدراسة او قاعات لالقاء المحاضرات وانتداب المختصين لالقاء سلاسل من هذه المحاضرات سواء كانوا من الاساتذة فيها او ممن يعلمون في الجامعات الاخرى

وسنجدل في هذا الفصل اقوالا متفرقة من مباحث المختصين الذين صوروا الاسلام للغرب كما فهموه ، فاننا اذا عرفنا كيف

يفهموننا عرفنا كيف يكون موقفهم منا وكيف يكون موقفنا منهم ، ولو كانت المحاولة « علمية » تدور عليها دراسات علماء.



افتتحت جامعة شيكاغو قاعة محاضراتها الاسلامية منذ نحو خمسين سنة (١٩٠٦) فحضر المحاضر الاول - دكان بلاك مكدونالد - أهم الموضوعات التي يمكن أن يدور عليها البحث في ثلاثة ، وهى الشخصية المحمدية ، ومدارس التصوف ، وأطوار الامم الاسلامية في حركة التجديد

وصفوة ما انتهى اليه في هذه الموضوعات الثلاثة أن الشخصية المحمدية لاتزال بعد أربعة عشر قرنا مصدر المدد المتصل في تقوية المسلم ، وأن الصوفية قد خلقت منفسا للعقيدة الفردية التي يدين بها المسلم المستقل بتفكيره واعتقاده عن سلطان الشيوخ وسلطان الجماهير ، وأن أطوار المسلمين تختلف اختلافا لا بد منه بين اناس ينتمون الى كل جنس وكل اصل من الاصول البشرية ، ولكن الاسلام قد أوجد بينهم أخوة عامة قل أن يوجد لها نظير في أتباع الكنيسة الواحدة ، وقد طبعت هذه المحاضرات بعنوان « الموقف الدينى والحياة الدينية في الاسلام » (١)

ومن الدارسين لموقف الاسلام في القرن العشرين المؤرخ الكبير أرنولد توينبى Ioyndee في محاضراته عن « العالم والغرب » التي أقيمت سنة ١٩٥٢ وفي محاضرات أخرى عن حركة التجديد التي سماها بالهيرودية وحركة التجديد المقابلة لها التي سماها بالاسية

وعند توينبى أن المسلم يواجه الغرب اليوم كما واجه الاسرائيلي حضارة رومة واليونان قبل ألفى سنة ، ولا يعنى بذلك أنه جامد على أساليب ذلك العصر بل يعنى به أن من المسلمين من يقاوم الحضارة الاوربية بالاقتباس منها كما فعل

The Religious Attitude and Life in Islam by Macdonald. (١)

هيرود. في عصر السيد المسيح ، ومنهم من يقاومها بالحفاظه
الشديدة والاصرار على القديم بنصه وحرفه

وقد ذكر الانقلاب التركى وما تلاه من الحركة الكمالية نحو
الغرب ، فقال ان التجديد التركى قد تطور هذا التطور لان
التجديد كله قد بدأ من ناحية العسكريين على اثر الهزائم
المتوالية التى منيت بها الدولة العثمانية فاتخذ صبغة التنفيذ
العسكرى بعد الهزيمة الاخيرة فى الحرب العالمية الاولى . ثم
قال ما فحواه ان النظام العسكرى قد اقترن بالنظام النيابى
الذى علقت جدره على ما يظهر بالتربة الاسلامية ، وفضل
العقلية الاسلامية على العقلية الاوربية فى أخوة الدين . فانها
فى هذا العصر الذى تقاربت فيه المسافات قمينة ان تحشد
الاسلام صفا واحدا امام غزوات الشيوعيين ، وقد نوه بالرسالة
التى تؤديها اللغة العربية فى هذا الموقف وهى لغة الكتابة
على اختلاف اللهجات بين مراكش وايران ومسقط وزنجبار



وصنف الاستاذ جب Gibb استاذ العربية بجامعة
اكسفورد عدة رسائل تدور بالتفصيل او بالاجمال على هذا
الموضوع

وملاحظته الاولى هى ان التجديد فى الاسلام يبدأ من جانب
« العلمانيين » او الدنيويين خلافا لتجديد الغرب الذى يتولاه
رجال الدين ، وان المسلمين العصريين يعتمدون على مكانة الامام
محمد عبده لتسويغ جهودهم التى لا يرضى عنها الجامدون كلما
حاولوا التقريب بين الاسلام والحضارة الحديثة ، وتعليل ذلك
عنده ان المسلم المتعلم على المنهاج الاوربى هو الذى يعرف
ما يستفاد من علوم الغرب وحضارته ، وهو منهاج لم يفتح
امام الشيوخ قبل الجيل الجديد

ويرى الاستاذ جب ان التجديد ينتشر فى العواصم وقلمنا

يسرى الى الاقاليم النائية في جوف البلاد
 ويلاحظ أن المجددين في مصر قد يتأولون الاحاديث النبوية
 ولكنهم لا يجترئون كما اجتروا بعض مجددي الهند على المناقشة
 في التنزيل ولا سيما المناقشة حول تنزيل القرآن . بلفظه أو
 بمعناه ، ولم يعلل الاستاذ جب هذا الاختلاف ولم يذكر له
 امثلة كثيرة في الهند أو غيرها ، ولكننا نظن أن خاطر التنزيل
 بالمعنى إنما يخطر لمن يتعودون أن يفهموا القرآن بمعناه أو
 يترجموا هذا المعنى مع قراءته بالحروف العربية ، وقليل
 جدا مع هذا من يعلق التجديد بهذا الضرب من التأويل



وممن الفوا عن الاسلام في الهند خاصة الاستاذ وفرد
 كانتويل سميث Welfred Cantwell Smith مدرس التاريخ
 الاسلامى بجامعة عايجرة

واهم ملاحظه أن دعاة التجديد يهتمون بآيات « قابلية
 الاسلام » للتخصير والتعدين ، ويشيدون بفضلها على حضارة
 الغرب من عهد دخوله الاندلس الى عهد الحروب الصليبية ،
 وأن بعض المجتهدين - وسمى منهم أبا العلاء المودودى -
 يؤمنون بأن الاسلام نظام الكون ، وأن العالم العلوى يمشى على
 نظامه فيصح أن يقال عن الشمس والقمر والكواكب أنها
 كائنات مسلمة ، بل يصح أن يقال عن تكوين الملقح نفسه انه
 في « كيانه الجسدى » يتبع نظام الخلق فيتبع من ثمة أحكام
 الاسلام

وينزع الاستاذ سميث الى التفسيرات الاقتصادية في عقائد
 الطبقات ، فيقول أن « الشخصية النبوية » هى مدار العقيدة
 حيث يلتمس المسلم في العصر الحاضر « مثلاً أعلى » لمسلكه
 وأدبه وقواعد خلقه ، وأن المساس بالنبي عليه السلام يثير
 المسلم أشد من ثورته على من يمس الربوبية ، ولا يقصد بذلك

ان مقام النبوة أعظم عنده من مقام الاله فهذا ممتنع كل الامتناع في الاسلام ، ولكنه قد تعود ان يسمع بالملاحدين المنكرين لوجود الاله ولم يتعود ان يواجهه أحد بالقدح في نبيه ولو لم يكن من المتدينين بدينه ، وهذه الحركة الواسعة قد عرفت خاصة بتعظيم شخص الرسول صلوات الله عليه حتى سميت باسم حركة « السيرة » وأصبح قوامها الاعجاب والاقتداء بسيرة النبي في حياته الخاصة والعامة ، وهنا يستطرد الاستاذ الى تحليلاته الاقتصادية فيقول ان الطبقة الوسطى في جميع الامم « فردية » أو معنية بالشخصية الفردية ، ومن ثم أتجه الشعور الدينى عند المتعلمين - ومعظمهم من الطبقة الوسطى - الى « شخصية » تملك اعجابهم وتقنع المتدين بجدارتها للقدوة والامانة فكانت « الشخصية المحمدية » هى مدار هذا الشعور وقبله هذا التفكير

وليس من غرضنا أن نطيل التعقيب خلال تلخيص الآراء الغربية عن الاسلام ، ولكننا نحسب أن الخطأ هنا لا يحتاج الى اسهاب في التعقيب عليه ، لان الاهتمام بدوات الاولياء والقديسين يشيع في كل أمة بين العامة وسواد الناس أشد من شيوعه بين المبسورين المتوسطين ممن يسميهم أصحاب التفسير الاقتصادي بالبرجوازيين . ونرى أن تعظيم النبي عام بين المسلمين في هذا العصر ، وأن كتابة السيرة المحمدية عامة كذلك بينهم في كل أمة . فلا عجب أن نعم البلاد التي كان للشخصية الانسانية فيها مكانة بارزة في كل عقيدة من أقدم العصور ، وهذا عدا ما هو ماثور عن طبيعة الانسان اذ تدرك القداسة متمثلة في صورة واضحة قبل أن تتمثلها في عالم التجريد



وبين أحدث الكتب عن الاسلام كتاب الاستاذ تريتون Tritton أستاذ الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن

وقد اختار للمسلم المعاصر مثالين : أحدهما هندي وهو الشاعر الصوفي محمد أقبال ، والآخر مصرى وهو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وهو يحاول أن ينفذ الى طبيعة ادراك الماضى والحاضر والقديم والجديد فى ذهن اقبال فيقول أن الزمن المطلق عنده كل عضوى شامل لا نتركه خلفنا بل هو يتحرك معنا ويعمل فى حاضرننا . ثم يقول أن الاسلام يعطى كلاً من العالمين - الدنيا والآخرة - حقهما ، وفى وسع المسلم العصرى أن يعيد النظر فى الاسلام كله دون أن ينقطع عن الماضى ، وله أن يراجع أحكام المعاملات والأشريعة لأن باب الاجتهاد مفتوح لايزال

قال : وقد ادى ضغط الآراء الغربية الى تغيير واحد فى التفكير الاسلامى ، فان المسلمين فى القرون الوسطى كانوا يتجاهلون قواعد التفكير الاخرى فأصبحوا اليوم معنيين بالرد على وجوه الاعتراض التى تأتى من غيرهم ، وهم يجتهدون ليثبتوا أن الإنسانية الصادقة والآداب القويمة والعقل السليم تلقى ارفع تعبيراتها فى شريعة الاسلام وأحكامه ، ويسلمون أن ديانتهم اليوم ليست على مايجبون وأن الإصلاح ضرورة لا محيص عنها ولكنهم يصرون على أن الاسلام دون غيره هو الذى يصلح لمطالب النوع الانسانى ، فقد تغيرت الاحوال ووجب أن تتغير معها النظرة الى الديانة . وقد كان اثر الغزالى فى الشيخ محمد عبده قويا يبدو واضحاً فى فهم الدين على أنه عقيدة باطنة حيوية من شئون السريرة ، وأن الشعائر الخارجية ثانوية مضافة اليها ، وقد أخذت طائفة من الذين يدعون على العموم لتلاميذ الشيخ تنقاد لمذهب الحنابلة فتجمعت من ذلك دعوة الى رفض البدع المستحدثة والعود الى سلامة العقيدة الماضية وتضمنت هذه الدعوة برامج اصلاح فى الشئون الدينية والاجتماعية والاقتصادية تثبت قابلية الاسلام للتدين به فى الاحوال الحاضرة ... وهؤلاء التلاميذ يتجهون الى أهداف

مختلفة بعضها وطنى قومى وبعضها مدرسى ينظر الى الحرية العقلية ، وبعضها يقدم الاصلاح الدينى ويعتبره مبنياً لسكل اصلاح ، ومنهم من يصبح بانقياده للنزعة الحنبلية محافظاً فى بعض الامور اشد من المحافظين ، وتصل الصبغة الغزالية عن حياتهم وانهم ليعتقدون انهم معتدلون يتوسطون بين البساطة التى ترجع بقوتها كلها الى التسليم الاعمى فى طوائف الدهماء وبين المتطرفين من دعاة التقدم الذين يجنحون الى الحرية العقلية المطلقة والاتجاه الى الحضارة العصرية ونظم الحكم الحديث والشريعة الوضعية ، ويؤكدون ان الاسلام اذا فسر كما يفسرونه يتكفل بالحل الوحيد لمشكلات المجتمع والسياسة والدين . . . »

وانتقل تربتون الى مسألة الخلافة فقال : « ان الفاء الترك للخلافة صدم العالم الاسلامى وان كانت الخلافة قد صارت منذ زمن بعيد اسماً على غير مسمى ، ولكنها كانت عندهم ذات قيمة عاطفية ، ومنهم من يؤثر ايجاد الخلافة بأية صبغة روحية خادمة للشريعة لا حاكمة مهيمنة عليه ، وانما وظيفته ان يراقب القيام بحكم الشرع ولا يستطيع ذلك بغير سلطان وراءه ، ومثل هذا الخليفة أدنى الى ان يكون كالامام عند الشيعة ، الا انه لم توجد قط ولا توجد الآن اداة معترف بها تتولى اختياره ، واقرّب ما يكون الى هذه الاداة فتاوى الفقهاء بغير صفة رسمية ، وهم لا يعينون بل يرتقون الى مكانتهم بالمعرفة ووجهة الشخصية كأنهم المثل المحسوس لاتفاق الجماعة . ويعتبر الوطنيون الذين يعتقدون ان خلاص الاسلام مرهون باقامة الحكومات المستقلة أناساً من الوجهة النظرية مقترفين لخطيئة التفرقة بين صفوف الجماعة ، ولكن الحكومات المنفصلة قد وجدت قديماً دون ان تفصم وحدة الجماعة وليس ما يمنع ان يعود الامر كما بدأ ويومئذ يصدق على عالم

السياسة ما روى عن النبي حيث يقول : « ان الاختلاف بين أمتي رحمة »

« ... وربما تأثر المسلمون بإجلال النصارى للمسيح فرفعوا مقام النبي الى أوج المثل الأعلى وجعلوا الدين محاكاة له في سيرته ، ولم تزل نظرة المسلمين الى نبي الاسلام تتنوع من حقبة الى أخرى . ولكن النبي نفسه كان يقول انه انما هو رسول وانسان من البشر وليس في يديه أن يصنع المعجزات »

وختم تربتون هذا الفصل قائلا ان الفجوة بين مدرسة التجديد ومدرسة المحافظة لا تزال على اتساع لا يأذن بالمراجعة التي دعا اليها محمد اقبال ، وكلتاها مع هذا قد تثوب الى القرآن الذي يوحى الى المدرستين أن الله ليس كمثله شيء وأنه أقرب اليهم من حبل الوريد



واشترك نحو عشرة من الباحثين الغربيين والشرقيين في دراسات متفرقة عن الثقافة والمجتمع في أمم الشرق الأدنى Near Eastern Culture and Society فقال أحدهم الاستاذ عبد الخالق عدنان اديوار - وهو تركي - ان حركة التجديد العصرية بدأت بدعوة ضيا شوق آلب المسماة بحركة « ينى مجموعة » او الجماعة الجديدة ، وغايتها أن تنشئ في الاسلام توفيقا كالتوفيق بين المسيحية والحضارة العصرية على مبادئ اللوثرية ، ولكن غلطة شوق آلب كانت على الاغلب غلطة لغوية في الترجمة ، اذ كان من سوء حظها أنه ترجم كلمة الدينوى أو العلمانى Latic بالاديني فنفر المحافظون من مذهبه على اعتباره زندقة مناقضة للدين ، في حين أن الكلمة لا تعنى اللادينية بل تعنى « غير الكهنوتية » .. ولو أنها ترجمت بهذا المعنى لما نفر منها المسلمون لانهم يسلمون أن ديانتهم خلو من

سلطان الكهنوت ، ثم جاء الاندفاع في سبيل « التغرب » فبلغ من سوره حدا اخرجته من الدعوة الفكرية الى حالة تشبه الحتمية الحكومية في سبيل « اللادينية » وانقلبت الآية من تعصب قديم الى تعصب جديد لا يسمح بالتمحيص وحرية المناقشة

ولخص حبيب أمين الكوراني حركات التجديد في ثلاث دعوات كبرى هي دعوة جمال الدين المنادي بالجامعة الاسلامية على أساس التقريب بين الاسلام والعلم ودعوة الوهابيين على أساس العودة الى السلف الاول ودعوة الشيخ محمد عبده على أساس العمل بمقتضيات العصر كما يسوغها التفسير الحديث لاحكام الاسلام

وتكلم كويلر يونج Cuyler Young عن ثورة السخط في ايران على المادية والاباحية وعزاها الى سوء المعيشة الدنيوية لا الى سوء العقيدة الدينية ، وقال ان تحسين المعيشة ونشر التعليم خير علاج للمشكلة النفسية مع تدليل صعوبة اللغة المختلفة بين الاقاليم

ومن الكتب التي درست الاسلام دراسة علمية على اتصال بمساعي المبشرين كتاب قنطرة الى الاسلام Bridge to Islam لصاحبه اريخ بتمان Erich Bethmann وكتاب طوابع الاسلام The Prospects of Islam لصاحبه لورنس براون Laurence Browne

اما الاول فيصرح باخفاق التبشير وينعى على الحضارة الغربية انها نفرت المسلمين من المسيحية ، ويشدد في نقد الروايات السيمية لانها ادخلت في روع المسلم الشرقي انها تمثل حياة الامم المسيحية فنظروا اليها نظرة طالب التسلية ولم ينظروا اليها نظرة طالب الاصلاح

وكأنما خشي من انصار التبشير اعراضا عن المعونة فلام الذين ينصحون بالتجيب الى الشرق من طريق التعليم والاحسان

والتطبيب ، وقال ان الذهن الشرقى مطبوع على التفكير الدينى « الثيولوجى » فهو لا يفهم الاصلاح على غير هذه القاعدة ومالم يكن هنالك حافز دينى فالامر عنده من الشواغل العرضية التى لا تستحق الجهد ومحاولة التبديل وانه لراى فى الحق جد عجيب ، لانه الراى الذى ينقلب على صاحبه ويقنع انصار التبشير بضياح المسعى وخيبة الرجاء فى كل تغيير يتوقف على تغيير العقيدة أو تغيير « الذهن » بما اشتمل عليه

وأما لورنس براون فمحاولته كلها متجهة الى تكذيب القول بعقم المساعى التى تبذل فى « تبشير المسلمين » ، وهو لا ينكر أن المسلمين الذين يصابون عن دينهم جد قليلين ، ولكنه يرى أن المسألة هنا مسألة الطبقة لا مسألة العقيدة ، وأن أبناء الطبقات اليسورة من المسلمين كأبناء هذه الطبقات فى جميع المال والنحل ، قوم قد استقروا على عاداتهم الاجتماعية وعلاقاتهم العائلية فلا مطعم فى تحويلهم عن هذه العادات أو قطعهم لهذه العلاقات . ولكن المطعم كبير فى الطبقات البائسة كما ظهر من نتائج التبشير بين الهنود المحرومين ، وكما ظهر فى رأيه بين المتنصرين الهنود الذين يرجح انتمائهم فى الاصل الى أجداد كانوا يدينون بنحلة من نحل الاسلام

وقد ظهر باللغة الانجليزية كتاب عن الاسلام والغرب ثم ترجم الى العربية باسم الاسلام فى نظر الغرب ونشر منذ شهور قليلة ، وقام بترجمته الدكتور اسحاق موسى الحسينى من فلسطين

يقول الاستاذ « فيليب حتى » ان الطرفين من المحافظين والمجددين يتباعدان وبينهما جماعة وسطى « تواجه عملية اختيار دائم » يتيسر فى المسائل الفنية والعلمية ويتعسر فى مسائل المجتمع ومشكلات المعيشة أو المشكلات الاقتصادية ، ويقول ان المتنرجحين من الترك قد غيروا لباس الرأس ولكنهم

لا يستطيعون أن يغيروا ما في داخل الرأس بمجرد لبس القبعة
وخلع الطربوش ، ويختم كلمته قائلا ان الدول العربية ليست
جزءا من آسيا . . . وعلى الغرب أن يقنع تلك الدول التي ترغب
في توطيد التفاهم مع الغرب أنها تنتسب الى تلك الثقافة . .
أي الى الثقافة الغربية !

ويسهب الدكتور بايرد دودج المدير السابق للجامعة الأمريكية
في أيراد الأمثلة من تفسيرات الشيخ محمد عبده على المطابقة
بين الاسلام والعلم الحديث ، ومن مسائل العلم الحديث التي
أشار اليها مسألة التطور والجراثيم ومسائل الاقتصاد التي
تناول المعاملة بالربا وما اليها ، ولكنه يقول ان الناشئة تبد
فرائض دينها « ويلوح لي ان هوليوود قد أثرت في الجيل الحاضر
من المسلمين أكثر من تأثير مدارسهم الدينية »

ثم يقول : « واليوم وقد أصبحت القومية ذات الصبغة
المادية عنصرا قويا في الفكر الاسلامي والمجتمع ، وهذا يؤدي
بالطبع الى مناهضة فكرة الوحدة الاسلامية أو الخلافة وكون
الاسلام اخوة منظمة - فالقومية قد حلت محل المظهر الديني
للوحدة الاسلامية الى حد كبير ، وغنى عن البيان أن الشبان
المسلمين الذين لا يبالون بالاسلام باعتباره نظاما عظيما هم الذين
يغلب عليهم اعتناق الشيوعية . . . »

وزبدة كل هذه الآراء ، ماكان منها لمحض العلم او ماكان
منها منظورا فيه الى التبشير والسياسة ، ان الغربى مشغول
بأمر الاسلام شغلان من يشعر بيقظته ويترقب ما وراء هذه
اليقظة فلا يخرجها لحظة من حسابه ، وأهم ما يههم أن يعلم
كيف يقف الاسلام غدا من مجاميع الامم الغربية والشرقية ،
وكيف يكون مسلكه اذا التحمت المعسكرات ثم افترقت عن
هزيمة هذا وانتصار ذاك

. ويقابل هذه النظرة ، أو هذه النظرات من الغرب . نظرة

او نظرات مثلها من جانب المجموعة الاممية التى تسمى بالكتلة الشرقية ، وتدل نظراتها جميعا على تناقض غير مطرد فى وجهته . فيرحبون حينما بنشاط القوميات لانها تفرق بين المسلمين فى البقاع المتقاربة ويرحبون حينما آخر بنشاط الوحدة الاسلامية لانهم يخشون العصبية القومية ولا يأسون من تفسير الدين بما يوافق دعوتهم الاجتماعية

واذا صرفنا النظر عن « اهتمام البواعث » أو عن الشغلان الذى يبعث اليه حب المعرفة وحب الانتفاع بهذه المعرفة فى توجيه السياسات وتقرير المواقف الدولية ، فالحقيقة البينة أن الاهتمام شامل لجماهير الاقوام غير مقصور على معاهد العلم ومراجع السياسة ، واحدى ظواهر هذا الاهتمام شيوع الطبقات الشعبية من ترجمة القرآن الكريم ، وأبلغ من دلالة هذا الشيوع أن يقول رجل من رجال الدين وهو يقدم المختارات من آى القرآن أنه اذا لم يكن كتابا فهو صوت قوى حى Strong Living Voice ... وهو غاية ما ينتظر ممن ينكر الكتاب (١)



(١) من مجموعة الكتب المقدسة فى العالم للقس بوكيه
Sacred Books of the World by Bouquet.

آسيا وأفريقيا

وكل بحث في مستقبل المسلمين يستتبع البحث في مستقبل القارتين آسيا وأفريقية على الخصوص ، لأن تسعة أعشار المسلمين يسكنون هاتين القارتين ، وحولهما تحوم اليوم مطامع الاستعمار والاستغلال والتبشير

وجملة مايقال في آسيا أن شعوبها أضخم من أن تبتلع في بنية شعب آخر ، وجملة مايقال في افريقية أنها أبعد أصلا من أن تندمج في الغرب وهى قائمة على تربتها

انما ينظر في هذه وتلك الى عاقبة السيطرة الثقافية ، ولانعنى بالسيطرة الثقافية سيطرة العلم الحديث ، فان الامم التى تتقدم فى العلم الحديث لا تقع تحت سيطرة أمة من جراء ذلك ، وقد تغلب بعلمها على السيطرة الاجنبية ان كانت واقعة فى قبضتها

وانما نعنى بالسيطرة الثقافية سيطرة العقيدة من جانب المذاهب الاجتماعية او من جانب التبشير
ان الدول الكبرى التى تتجاذب سياسة العالم هى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وروسيا الشيوعية

والظاهر ان سياسة بريطانيا فى القرن العشرين ان تراجع عن آسيا ، وعن الشرق الاقصى خاصة ، وتترك ميدان السباق فيه للروس والامريكيين ، ثم تلوذ بمفترق الطرق بين القارات الثلاث فى آسيا الغربية ، أى فى بلاد العرب التى تمتد من العراق الى البحرين الابيض والاحمر

أما السيطرة الروسية فهي تقوم على نشر الشيوعية . وهي مذهب لا يوافق الاسلام في أساسه ولكن الاسلام يغنى عنه اذا اتبع المسلمون قواعد المساواة والانصاف وعملوا بأصول دينهم في التوسط بين التهالك على الدنيا والاعراض عنها ، وينبغي أن نذكر في هذا المقام أن بلاد الروس وما جاورها هي قطعة من أوربا أخذتها آسيا من زمن غير بعيد ، وقد يحدث في المستقبل تكرار لهذه الظاهرة على صورة أخرى ويكون للاسلام شأن كبير في هذا التكرار

وتتسابق الدولتان الروسية والأمريكية على المناجم وينابيع النفط ونقط الاستحكام في هذه القارة الواسعة ، ومآل كل ذلك حتما إلى إبناء البلاد لأن حبل الزمن أطول من حبل المال وحبال السياسة ، وذلك على شرط واحد وهو الاحتفاظ بكيان الأمة وقوامها ، وليس في آسيا قوة روحية أقدر من الاسلام على حفظ الكيان والقوام للأمة التي تؤمن بدينه

أما بلاد العرب حيث تتراجع الدولة البريطانية فقد أحيطت بحلقات من المشيخات والسلطنات تتعاقد معها بريطانيا على ضروب من الحماية المقنعة ، وتحسب من وراء ذلك حساب المواصلات وآبار النفط ومواضع الاستحكام العسكري في حالة الحرب العالمية ، ولكنها لا تهمل حساب التبشير ولا تنكر مسعاه في حمايتها ، وهذه عبارة في سلسلة السيطرة العالمية تدل على كثير

يقول هارولد ستورم في كتابه إلى أين يا جزيرة العرب (١) :
« أن قبائل الجبال وراء ظفار - وهم من سلالة مخالفة كل المخالفة - تستخدم لهجات غير عربية كالشحرية والمهرية والبوطهارية والخرسوسية ، وكل لهجة من هذه اللهجات لا يفهمها المتكلمون باللهجات الأخرى ، وقد تمكن العالم اللغوي

Whither Arabia, by Harold Storm (١)
«World Dominion survey series» من سلسلة

الامانى الدكتور مكسمليان بثر Bethner من رسم اللهجتين الشحرية والمهرية بالكتابة وهما على مايلوح لى على قرابة من احدى اللغات الهندية حيث تدل بعض الروايات على هجرة سابقة من الهند الى ظفار ولا تزال ثمة عادات قريبة من عادات الهنود ، وقد اضطرت الى استخدام مترجم بين هذه القبائل حين عشت فى بلادها ، وتبين لى من صعوبة اللغة ان العمل بينها - اى عمل التبشير - عسير

« ولما كانت ظفار على بعد خمسمائة ميل من مسقط تحت سيادة سلطانها فكل محاولة لتكوين العمل هنا تستلزم لامحالة رجوعا الى العمل الذى تأسس فى مسقط نفسها ، ويدعو موقف السلطان الودى فى الوقت الحاضر الى الامل فى الانتفاع بهذه الفرصة لانجاز شىء . اذ تتنقل بعثات التبشير بغير عائق فى عمان ويرجى من تعزيز مركز مسقط مزيد من العمل ، وهناك فى داخل عمان قبائل لا حكم عليها للسلطان نجحت بعثات مسقط فى حمل رسالة الانجيل اليها على نطاق اوسع مما تيسر قبل الآن فى اى مكان »

اما القارة الافريقية فقد احيطت كذلك بحلقات من الجهات الاربع تسيطر عليها الدولة البريطانية ، وتكاد المصنفات الكثيرة عن هذه القارة ان تجمع على اعتبارها فى عالم الاستعمار « حظيرة خاصة » ببريطانيا العظمى ، واحد هذه المصنفات صريح بهذا المعنى فى عنوانه وهو « افريقية امبراطورية بريطانيا الثالثة » *Africa, Britain's third Empire* من تأليف

جوزج بادموور Padmore

وقد ظهر باللغة الانجليزية فى السنوات الاخيرة اكثر من مائة كتاب عن القارة الافريقية ، وبعض عناوينها ينم على مبلغ الامل والحذر من هذه الجهة التى احاط بها الظلام الى اوائل القرن العشرين

من عناوين هذه الكتب عنوان « الامل فى افريقية » مؤلفه
آلبورت ، وعنوان « افريقية الغربية الجديدة » لاربعة
مؤلفين ، وعنوان « الافريقى اليوم وغدا » مؤلفه ديديرنج
وسترمان ، وعنوان « قضية الحرية الافريقية » مؤلفه جويس
كارى ، وعنوان « افريقية تنهض » مؤلفه . . و . م . مكميلان ،
وعنوان « قارة الغد » مؤلفه بطرس بن ولوسى ستريث . .
وهكذا وهكذا عشرات من التصانيف الجديدة تتلوها عشرات

ومامن كتاب من هذه الكتب خلا من ذكر الاسلام والتحدث
عن سهولة انتشاره بين الشعوب الافريقية ، ونجترىء بنماذج
من هذه الاشارات للدلالة على السياسة التى قد توحىها
معلومات القوم عن اثر هذا الدين فى مستقبل الافريقيين

يصف وسترمان دين الاسلام وصفا غريبا يعلل به قابلية
الشعوب الفطرية للاصفاء الى دعوته ، فيقول عنه انه دين
مذكر او دين ذو رجولة Masculine يعجب الافريقى
ببساطته وقوته ، ثم يقول « ان المسلم لايهبط الى مثل هذا
الافتداء الخاضع الذى يهبط اليه الزنجى الوثنى ، فينمنا
يفخر الزنجى الوثنى اذا اتيح له ان يلف نفسه بخرقه عتيقة
يلقيها الاوربى اليه ويعرض نفسه للسخرية بهذه القدوة
الهزلية - لا يخطر على بال المسلم ان يستبدل ملابس الاوربيين
برداءه الفضفاض وقلنسوته السعفية »

ويضيف الى ذلك ان الاسلام متى بدأ فى مكان لم ينتظر
مددا من الخارج للتوسع فى جواز ذلك المكان ، فمعظم التبشير
به افريقى لايحتاج الى معونة من غير الافريقيين

وقد ألف الأستاذ نادل Nadel النمساوى أستاذ علم
الاجناس البشرية بجامعة النمسا الوطنية - كتابا مفصلا عن
عقيدة النيوب فى بلاد النيجر وائر الاسلام فيها قال فيه : « ان
الاسلام يطوى جميع العقائد والشعائر ويلحق به الاتباع ولا

يدعمهم شراذم هنا وهناك ويتطلب الايمان التام ولايكتفى بعلامات الموافقة والمجاراة »

ويقول البروفسور مكميلان في كتابه « افريقية تنهض »
Africa Emergent « ان الجانب الاسلامى فى بلاد النيجر قد
انمى فيه ما يحسب الان ثقافة مقررة بمعنى الكلمة الصحيح ،
وقد تلقت هذه الطوائف حكمة جمعة قد يكون القليل منها اليوم
هو الحقيقى بان ينسى »

وبديه ان كل اعتراف من هذه الاعترافات يستتبع وراءه
خطة الجذر والحيلة للمستقبل ، ولكن المستقبل سيكشف
للافريقيين ولارب حيلته فى مقاومة هذه الخطط او محاذرتها
واتقائها من جانبه

اما الامل الذى يتخيل امام المستعمر البريطانى فى هذه
القارة فهو تأليف دولة شاسعة من ولايات متحدة تتصل كل
مجموعة منها مع المجاميع الاخرى بصلة المحالفة ، وقد شرح
صاحب كتاب « قارة الغد » برامج هذه الولايات . وقال ان
مصلحة الاوربي والافريقى فيها لا تتعارضان ولا تتناقضان بل
تتوازيان ، وان افريقية اما ان تحكم على هذا المثال او تصير
فى نصفها الجنوبى على الاقل وطنا مدمجا فى الشعوب الشرقية
التي تهاجر اليها واكثرها من الهنود ، وقد تطلع الشيوعية فى
استخلاصها لها من مصر كهذا او مصر كذلك

ويوشك الراى الغالب على هذه المصنفات ان يتجه الى
غاية واحدة : وهى ادخار افريقية لتزويد الامم الغربية بمواد
الغذاء وخامات الصناعة ، مع بعض الرجاء فى الثور على
المعادن والزيوت فى باطن ارضها ، حيث يتيسر تصنيعها الى
جانب مناجمها

وقليل من الكتاب الغربيين من يطيب له ان ينظر بعينه
جميعا مفتوحين الى الغد الذى لا مهرب منه فى قارة « الغد »

كما يسمونها . فمهما يبلغ من نجاح خطط الاستعمار أو
التبشير فلن تكون أفريقية في النهاية لغير الأفريقيين ، ومن
داخلها سيخرج لهم من ينتزع سيادتها من أيديهم ، ومن
يناصبهم العداء لانهم قد استأثروا دونه زمنا بهذه السيادة ،
ولا يسره يومئذ أنهم استعمروه أو بشروه



لو عاد محمد عليه السلام

من الاماثل التى تعاد ولا تمل امثلة للكاتب الروسى
(ديستيفسكى) عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش فى قصة
الاخوة كرامزوف

وخلاصة الامثلة أن السيد المسيح عاد الى الارض واخذ
فى وعظ الشعب وتبشيرهم بالملكوت فأقبلوا عليه واستمعوا له
وأوشكوا أن ينفضوا عن وعاظهم ودعاتهم اليهودين ، فاشفق
هؤلاء على مكانتهم وأوعزوا الى رئيس محكمة التفتيش فاعتقله
وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به
عن تعاليم السيد المسيح ! .. وقال له : ان هؤلاء الذين
يقبلون عليك اليوم هم أول الثائرين عليك واسبق المبادرين الى
تنفيذ القضاء فيك

امثلة تعاد ولا تمل لان العبرة بها لا تنقضى فى حقبة
واحدة ، ولا تزال عبرة الدهر كله فى احاديث المصلحين
والمفسدين

ولم يبالغ الكاتب العظيم فى تخيله ، فانما يكون مبالغا لو كان
ماتخيله بعيدا او غريبا فى بابه ، ولكنه فى الواقع أقرب شيء
الى الاحتمال مع هذه البشرية التى تختلط فيها الشيطانية
والخنزيرية والحمارية فى وقت واحد ، فلا تزال حربا على من
ينفعها والعوبة فى أيدي العابثين بها ، وان كرروا العبث بها
كل يوم مرات بعد مرات

لو عاد السيد المسيح لانكره كثيرون ممن يعيشون باسمه

وينتحلون هدايته

ولو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك النصيب ممن يرفعون العقيرة بهداية الاسلام ، والاسلام برىء منهم ، وكل ماهنالك من خلاف أن المسألة لا تمر بتلك السهولة التي توهمها رئيس محكمة التفتيش أو من يتصدى في الاسلام لمثل عمله ، وأنه سيندم على فعلته ندما يكفر عن سيئاته ، أن كانت سيئاته مما يقبل التكفير

وأسأل نفسي كيف ينتفع المسلمون على أحسن وجوه النفع بعودة النبي عليه السلام فترة قصيرة من الزمن ؟ وماهى المسائل التي يرجعون بها الى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها ؟

أسأل نفسي فتخطر لى مسائل خمس يرجع فيها الى شخصه الكريم ويعنى جوابه فيها كل الفناء فلا حاجة ولا اختلاط ولا حاجة الى الاجتهاد والتأويل من مجتهد أو مقلد وما اشبه الاجتهاد والتقليد في هذا الزمان !

تلك المسائل الخمس هى : مسألة الاحاديث النبوية ، ومسألة الروايات في قراءة الكتاب المجيد ، ومسألة الخلافة والملك ، ومسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، ومسألة المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الاسلام عليها وقول نبي الاسلام فيها

مسألة الاحاديث النبوية

ان رجال الحديث قد بلغوا الغاية من الاجتهاد المشكور في جمع الاحاديث وتبويبها وتقسيم رواياتها وأسانيدھا ، وقد جعلوا من اقسامها الثابت والراجح والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علما مستقلا يتفرغ له علماء مستقلون

وبعد كل هذا الجهد المشكور لا تزيد الاحاديث الثابتة على عشر الاحاديث المتداولة في الكتب وعلى الالسنّة وكلمة واحدة من فمه الشريف عليه السلام ترد الامور جميعا الى نصابها : « لم اقل هذه الاحاديث ! » وينتهي القيل والقال ويبطل الخلاف والجدال ، ويبطل معها بلاء أولئك المحدثين الذين يستندون الى الحديث الكاذب في التضليل وترويع الابطايل

قراءات القرآن

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الاحاديث في أشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فان الروايات التي لم يتفق عليها القراء لاتغير شيئا من احكام القرآن ، ويمكن الاخذ بها جميعا ولا ضرر في ذلك ولا ضرار الا انها لا تحتل اقل اختلاف مع وجود النبي الذي تنزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القراءات ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس الى تلاوته - في عصر التسجيل - فتلك ذخيرة الابد في ذاكرة الاجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن أول ما يسمعه السامعون في مجالس الذكر الحكيم

الخلافة والملك

وتأتى مسألة الخلافة ، بل معضلة الخلافة تلك المعضلة التي سالت فيها بحور من الدماء وجداول من المداد ، وبقيت وراء كل انقسام نذكره في الاسلام حين نذكر السنّة والشيعّة والاماميين والزيديين والاسماعيليين والنزاريين ، وحين نذكر الهاشميين والامويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم وغيرهم من المنقسمين واقسام المنقسمين بم اوصيت يارسول الله في امر الخلافة ؟ وهل اوصيت بها دينية ام دنيوية ؟ وهل تريدها اليوم على هذه أم على تلك من صفاتها واحكامها ؟

فاذا قال عليه السلام اوصيت بكذا ولم اوص بكذا ، فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فاذا هي بيضاء من غير سوء ، واذا هي بقية من بقايا الماضي تحال الى دار المحفوظات للعبرة والخذلر أو يلقي بها حيث لا حس ولا خبر

وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال

الرسالة بعد خاتم المرسلين

والخطب أهون من ذلك جدا في مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، فان المخالفين للاجماع في هذه المسألة واحد في كل خمسمائة مسلم ، وسينتهى خلافهم عما قريب ولكن اذا انتهى بكلمة من الرسول الذي يؤمن به المسلمون جميعا فتلك هي النهاية الفاصلة ، وقد تمنع في المستقبل اضرارا لا يقاس عليها ضررها في الوقت الحاضر ، وخير من واحد ينشق على خمسمائة أن يتفق الخمسمائة فلا ينشق منهم واحد !

المذاهب الاجتماعية الحديثة

وما قولك يا رسول الله في دعاة المذاهب العصرية من اجتماعية أو غير اجتماعية ؟
لا حاجة الى السؤال عن الديمقراطية ، فان سابقة الاسلام فيها أصلح من كل سابقة
ولا حاجة الى السؤال عن الفاشية فان الاسلام يمقت الجبارين والمتجبرين
ولا حاجة الى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فانها ملعونة في كل دين

وانما يسأل النبي عليه السلام في الاشتراكية فيقول ما قاله القرآن حيث نهى أن تكون الثروة « دولة بين الاغنياء » ..
ثم يسأل عن شرحها فيتلقاه منه المسلمون على أقوم المناهج وأسلم الحلول

وتأتى على الهامش اسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين فى الاحكام والقوانين باسم الدين ، وعن احاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأشسباه الصحفيين

وسمع من النبى عليه السلام فى أولئك كله جواب يغنى عن ألف جواب أو عن كل جواب ونعود الى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين

ان كاتب هذه السطور آخر من يؤمن باقناع العقول أو بسلطان البرهان فى الاقناع

ان كاتب هذه السطور قد رأى بعينه أناسا أغرب وأصفق ممن ينكرون الشمس فى رائعة النهار

وليس بالمستحيل عندى أن يعاندك المعاند ويكابر المكابر فى « اثنين واثنين يساويان أربعة وفى واحد وواحد يساويان اثنين »

بل ليس بالمستحيل عندى أن يكابر المكابرون فى معنى الواحد ومعنى الاثنين وأن هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس برقم من الأرقام

فاذا عاد النبى عليه السلام وقضى قضاءه فى أحكام الاسلام فلا والله لا يعدم الناس من يشكك فى كلامه وبيانه وفى ملامح وجهه وعلامات جثمانه ، ولا والله لن يسلس المقاد ممن يلج فى العناد ويضيع عليه الجاه أو الغنى بما قضاء الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول

غير أنه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع أصحابه ولا يطمعون فى الرجاء منه حتى تفجأهم الحوادث يالندم عليه ، وصلى الله على محمد فى الأولين والآخرين ، فما هو إلا أن يعود فلا تعز عليه هداية المهتدين ورياضة الذين لايهتدون ، فلا يصدون أحدا عن الدنيا ولا عن الدين !!

التراث الاسلامى

ووسائل احيائه فى هذا العصر

احياء التراث الاسلامى لابد له من عملين متلازمين يتوقف
احدهما على الآخر

احدهما نشر الكتب والآثار الاسلامية فى جميع الاقطار التى
تقرأ لغة العرب

والثانى ايجاد الرغبة فى قراءة هذه الكتب والاحاطة بهذه
الآثار ، أو تنشيط هذه الرغبة اذا كانت موجودة على حالة
من الضعف والفتور ، اذ لا يكفى نشر الكتب والآثار لحياء
التراث الاسلامى اذا نحن نشرناها بين أناس لا يحفلونها ولا
يقبلون عليها ولا يشعرون بالحاجة الى دراستها والامام بها

وكثيرا ماتكون طريقة النشر سببا من أسباب الترفيب فى
القراءة والتنشيط اليها ، وكثيرا ماتكون الرغبة فى القراءة
والنشاط اليها سببا من أسباب العناية بالنشر والتوفر على
وسائله المثلى . ومن ثم نقول أن احياء التراث الاسلامى يحتاج
الى عملين متلازمين ، وأن كل عمل من هذين العملين يتوقف
على الآخر

وعندنا أن الوسيلة المثلى لايجاد الرغبة فى احياء التراث
الاسلامى هى مزجه بالحياة الحاضرة وتحويله الى مجراها ،
فلا يشارفه الانسان كما يشارف متحفا قديما للآثار المحفوظة
بل يشارفه كما يدخل فى معترك الحياة وينغمس فى تيار الشعور

والعاطفة وليس ذلك بعسير اذا حسنت المطالعة وحسن الاختيار
وحسن التنبيه



فالتراث الاسلامى عامر بسير العظماء والابطال ، وكل واحد
من هؤلاء العظماء والابطال له حياة ، وله اشواق ، وله هموم ،
وله وثبات بين الرجاء وبين النجاح والافاق ، ونعيد هذه
الحقيقة بعبارة أخرى فنقول ان كل عظيم من عظماء الامم
الاسلامية وكل بطل من ابطالها صالح لان يصبح مدار قصة
أو حادثة كهذه القصص أو كهذه الحوادث التى نقرأها ونشاهدها
فتهز نفوسنا وتنطبع فى خاطرننا وتصبح حية بحياتنا عصرية
بانتقالها الى عصرنا ومشابتها الوقائع والاحداث التى تجرى
بيننا

التراث الاسلامى عامر بالحركات الاجتماعية التى تحتاج منا
الى فهم جديد وتفسير جديد ، فاذا استخرجنا هذه الحركات
الاجتماعية وعرضناها وفسرناها على الوجه الأمثل ، فسنرى
يومئذ أنها حركات حية تشبه كل الشبه مانراه بأعيننا أو
مانقرؤه فى الانباء البرقية والصحف السيارة ، وسنرى يومئذ
ان عالم التاريخ الماضى وعالم الحياة الحاضرة يلتقيان اقرب التقاء ،
ويتعاونان فى افهامنا حقيقة الماضى والحاضر على السواء ، قرب
مسألة عصرية لا نفهمها حق فهمها الا اذا قارناها بمسألة مثالا
فى العهود الغابرة ، ورب مسألة غابرة لانفهمها حق فهمها الا
اذا ضاهينا بين أسباب اليوم وأسباب الامس ، ورجعنا الى
البواعث المشتركة بين ماكان وبين ماهو كائن ، فنحس ونحن
نقرأ أننا لانتقل الى عالم التاريخ الدابر بل ننقل التاريخ الدابر
الى عالمنا الذى نعيش فيه ونضطرب بالرجاء والكفاح فى نواحيه
والتراث الاسلامى عامر بالفكاهات والنوادر والاحاديث التى
لا زمان لها لانها انسانية تصلح لكل زمان ولا تختلف باختلاف

البلدان والاطوار ، فاذا بحثنا عنها وجمعناها وجدنا أنها صالحة لوقتنا كما كانت صالحة لاوقاتها التي جرت فيها ، لان الطبيعة الانسانية في أساسها قلما يطرأ عليها التغير في عناصر الفكاهة والعبرة ومقاييس الفطنة والبلاغة ، فالنادرة البارة والجواب السريع والفكاهة الحسنة والكلمة النافذة هي بنت كل زمان يعيش فيه الانسان ، وليس بالتغير عليها مع تغير التواريخ الا طريقة العرض والتناول دون المعدن الاصيل

والتراث الاسلامى عامر بالشعر « الفنائى » والمقطوعات الباهرة والشواهد السيارة ، ومنها ما ليس يحتاج الى غير النقل والتعليق اليسر ليلقى نصيبه من الرواج والاعجاب ، ومنها ما يحتاج الى تعليق يجعل الفائدة منه فائدتين والرغبة فيه رغبتين ، يقرؤه القارئ ليستوعب محاسنه فهذه فائدة ، ويقرؤه ليدرك الفرق بينه وبين مايقابله من آداب الامم الاخرى أو من آداب العرب فى العصر الحاضر فهذه فائدة أخرى

وهذه عندنا هي وسائل « احياء التراث الاسلامى » اى نقله الى عالم حياتنا وتحويله الى مجرى زماننا ، وتمثيله للقراء كى يشارفوه كما يشارفون الدنيا الحية لا كما يشارفون المتاحف المزوية . فهو يحيا بنا. ونحن نحيا به فى آن



من الذى يقوم بهذا الواجب ؟ ؟

جماعات أو افراد لا يستفنون عن جهد الجماعات ، وسنبين حضرات القراء فيما يلى أن الادب العربى خاصة - سواء أكان قديما أم حديثا - أحوج الآداب الى جهود الجماعات التى لاتغنى فيها أعمال الافراد المتفرقين
فعلى الحكومات قبل كل شيء أن تقبل فى بلادها المختلفة على

احياء ما عندها من المخطوطات المتروكة او المطبوعات الكاسدة ،
وعليها أن تربط بين هذا العمل وبين قوانين الانتاج الناجح في
سوق الاعمال الاقتصادية ، فلا تلقى به الى موظفين مطمئنين
الى مرتب مضمون كيفما كان مصير عملهم من النجاح أو
الخيبة ، بل تنوط به أناسا يعينهم رواجه وكساده ويهتمون
به اهتمام الزارع بمحصوله والتاجر بكسبه ، وتجعله مقرونا
الى بعض الشركات على نحو تشترك فيه الفيرة على الادب
والفيرة على الرواج

وهناك اقسام كثيرة لاهياء التراث الاسلامى غير مجرد الطبع
والاذاعة ، فمن الكتب ما يطبع كما كتبه مؤلفوه ، ومنها
ما يختار منه الاصلح والادنى الى التشويق ، ومنها ما يشفع
بالتعليق أو التفسير ، ومنها — وهو اصعب الاقسام جميعا —
ما يحتاج الى المقارنات بينه وبين نظائره فى الامم الاخرى ، والى
الملاحظات عن البواعث والاسرار التى لا يقتصر العلم بها على
العلم بالشئون الاسلامية

وعلى الحكومات الى جانب هذا أن تهتم باقامة المؤتمرات
والمحافل فى مناسباتها المتجددة ، كذكرى الادباء والعلماء
والعظماء ، وافتتاح المعاهد التى تعنى جميع الناطقين باللغة
العربية ، وتكريم النابهين وتبادل الزيارات ، وما الى ذلك من
المناسبات التى تلفت الانظار وتجذب الاسماع وتخلق بواعث
الرغبة فى الاطلاع

وقد اسلفنا أن الادب العربى أحوج الآداب الى جهود الجماعات
لان اللغة العربية موزعة بين اقطار عدة وحكومات شتى على
خلاف اللغات الاخرى التى تشتمل كل منها على أمة واحدة
أو أمتين كبيرتين تستغنى احدهما عن الاخرى
فالكتاب الانجليزى له — على سبيل التمثيل — مائة ألف

قارئ يتبعون حكومة واحدة ويتعاملون بنظام واحد ويتبادلون
الاخذ والعطاء في ظل دولة واحدة ، ويكفى أن يطبع الكتاب في
لندن أو في نيويورك ليعتمد على قرائه في أنحاء الدولة البريطانية
أو في أنحاء الولايات المتحدة بغير حاجة الى أمة خارجة عن
هذا النطاق

أما الكتاب الذي يطبع في القاهرة فلا بد له من طابع قادر على
معاملة أناس متفرقين في عشرة أقطار ، وحكومات بينها من
الاختلاف مثل ما بين مراكش والعراق أو ما بين سورية والسودان
أو ما بين طرابلس وحضرموت ، وأين هو القلب الواحد الذي
يحرك الدم في جميع هذه الشرايين من أدناها الى أقصاها أن
لم يكن قلبا كبيرا يتجاوز طاقة الفرد الواحد الى طاقة الجماعة
القوية بالمال والنفوذ ؟

بل خذ مصر وحدها تعلم أن الجهود الثقافية فيها تكاد
تنحصر في القاهرة ولا تتعداها الى سائر المدن الموزعة بين
الاقاليم ، فالاسكندرية خلو من مكتبة عربية كبيرة ، ودع عنك
طنطا والمنصورة وأسيوط وأسوان ، ويرجع هذا الى قيام
الأفراد بالطبع والنشر دون الشركات الواسعة النطاق ، فان
الشركة تستطيع أن تدير الباعة في الاقاليم مرة كل أسبوع
أو مرة كل شهر لتوزيع الألوف المطلوبة من الكتب هناك ،
ولكن الفرد الواحد لا يستطيع أن يدير مكتبة في البلدة الصغيرة
من أجل عشرين نسخة من كل كتاب جديد لا يدري متى يكون
صدوره ولا من يتولى إصداره وهل هو صاحب المكتبة التي
يعاملها أو هو صاحب مكتبة غيرها ، وقس على ماتقدم سائر
المصاعب والعراقيل

وخلاصة الرأي أن أحياء التراث الاسلامي انما يتأتى بأعمال
ثلاثة هي (١) اظهار ذلك التراث ، (٢) تنشيط الرغبة فيه
بتحويله الى مجرى الحياة الحاضرة وتقريبه من شواغل الأذهان

والنفوس في الزمن الحديث ، (٣) تنظيم النشر والتوزيع على
أيدي جماعات قوية يتسنى لها ما ليس يتسنى للأفراد من
توحيد المعاملة وتوسيعها بين الجهات المتناهية والحكومات المتباينة
وسيكون هذا العمل العظيم مفيدا للقائمين به ولابناء الأمم
العربية كافة ، أيا كان معنى الفائدة الذي نتوخاه



الفد

والفد غيب مجهول !!

ولا حاجة بنا إلى التنجيم عن حوادثه وصروفه ، فانه بأية حال لن يخلو من الحوادث والصروف ولن يخلو حوادثه وصروفه من سلم وحرب ونصر وهزيمة ودول تعلو ودول تهبط وعلاقات تتصل وعلاقات تنفصل ، وصداقة تنقلب إلى عداوة وعداوة تنقلب إلى صداقة ، وتكرار على نسق الماضي وبدع جديد كانه من الماضي المتكرر ، فما خلا زمن قط من بدع جديد .

انما نحن آمنون اذا واجهنا الفد المجهول بعدته ، وانما نحن مستعدون له يخبر مانستطيع اذا خرجنا من الماضي الطويل بعبرته الوافية ، وعبرته الوافية أن العقائد أثبت من السياسات وأن الأمم أثبت من الدول ، وأن الجاهل أعدى لامته من أعدى أعدائها ، وما نكب الاسلام قط من حرب صليبية أو من حرب استعمار كما نكب من ابنائه الجهلاء

ولا نرجع إلى الف سنة مضت منذ ابتدأت الحروب الصليبية لنرى مصداق هذه العبر واحدة بعد واحدة

كفى أن نرجع إلى أول هذا القرن العشرين ولما ينصرم منه غير نصفه أو أكثر من نصفه بسنوات . فقد كانت في أوله دول يخشى منها على قارة كاملة ، وكانت فيه دول تشبثت بكل بقعة من بقاع المشرق أقصاه وأدناه ، وكانت فيه دول

تعتزل العالم القديم وتطلب من العالم القديم أن يعتزلها ،
فتغيرت المواقف .وتغيرت السياسات وتغيرت الدول وتغيرت
العلاقات ، وقاتل الناس في صفوف ثم قاتلوا في غير تلك
الصفوف ، ولم تتغير معالم الارض ولكن تغيرت الحدود وتغيرت
الدول التى تقوم بين تلك المعالم والحدود
فمهما تكن السياسة فالعقيدة أثبت منها

ومهما تكن الدولة فالأمة هى الباقية
ومهما يكن الخطر فالجهل فى كل معترك ومع كل خصم أو
منازع هو أخطر الاخطار

واذا بقى للاسلام ايمانه والمؤمنون به على هدى وبصيرة
فلا خطر عليه من أقوياء اليوم ولا من أقوياء الغد المجهول ،
وأخطر من كل خطر أن يتخلف مكان العلم والبصيرة ويتقدم
مكان الجهل والغباء

ومثل من أمثلة الجهل والغباء أن يطول اللجاج ويحتدم
الهيّاج على التحريم والتحليل ، ومحصول ذلك كله أهون من
خطر اللجاج وخطر الشقاق والهيّاج

ان الجهل الذى يفرى صاحبه بتحريم البرق واتهام العاملين
فى الكهرباء بمخالفة الشيطان لهو اخطر على الاسلام من كل
حلال وحرام

ولقد تطول الاقاويل فى حل التماثيل وتحريمها وفيما سو
تماثيل وليس بصورة أو ماهو صورة وليس بتمثال ، ولكن
التماثيل والصور على اختلاف أوصافها وتعريفاتها قد وجدت
بين أبناء الأديان من المسيحيين واليهود والبراهمة والبوذيين
ولم نسمع قط أنهم سجدوا لتمثال بطل عظيم أو تعبدوا
لضريح نابغ مشهور ، وليست عقيدة المسلم بأضعف من عقائد
الأديان عن مدافعة هذه الاخطار ان خيفت منها الاخطار ،
فلا يمتنع البحث فى الحلال والحرام ولا فى الصحيح والباطل

من عقائد المعتقدين ، ولكنه اذا بذل فيه من الجهد فوق حقه ، واضعاف خطره ، فذلك هو الخطر الاكبر وذلك هو الجهد العقام ، واحتفاظ المسلم بايمانه امام هذه المحرمات ايسر جدا من احتفاظه بالايمان امام جاهل يكفر القائلين بدوران الارض أو تسخير الكهرباء أو الاستماع الى المذياع من غير ذى صوت منظور ، ثم يزعم انه يفتى بحكم الدين فيصدقه من يجهل الدين ويكفر بالدين من يحمل عليه جريرة فتواه

ولا خطر على المسلمين اوبل من هذا الخطر ، فاذا اتقوه وعادوا بالايمان على علم وبصيرة فلا خطر عليهم من الدول والسياسات ، ولا من ذوات اليمين ولا من ذوات اليسار

ولا ينسبون المسلمون انهم مجموعة من الامم في عصر المجموعات وان لم يكن عصر الجامعات كما عرفت قبل هذا القرن العشرين لا ينسبون المسلمون انهم مجموعة من امم العالم فان العالم لا ينسى هذه الحقيقة ولا يزال يذكرها ويتذكرها ويرتب عليها ما يرتبه من الخطط والمواقف بازائها

وعصر المجاميع غير عصر الجامعات ، او هكذا تتمثل لنا المجاميع والجامعات باصطلاح الزمن مع التقارب بينها في مادة اللغة العربية ، فالمجموعة قائمة سواء ارادها اصحابها او لم يريدوها ، والجامعة لا تقوم الا اذا اريدت لغرض مقصود ، وغالبا ما يكون هذا الغرض وحدة في الحكم أو في السياسة أو في مشروع من مشروعات المحالفة والمعاهدة

والاسلام شاء او لم يشأ مجموعة بين مجاميع الامم الكبرى في القرن العشرين ، وليست مجاميع الامم مقصورة على الكتلة الشرقية التى يتزعمها الروس أو الكتلة الغربية التى يتزعمها الامريكيون والانجليز ، ولكنها اكثر من ذلك واحق أن تعرف جميعا أو يعرف بعضها على سبيل التمثيل ثم يقاس عليه فالمجموعة الشرقية والمجموعة الغربية معا تتخللهما مجموعة

واحدة يمكن أن تسمى بمجموعة الكنيسة الرومانية ، ويظهر موقف الجامع في هذا العصر من موقف الكنيسة الرومانية بين الكتلتين

ان الكتلة الغربية يقودها انجيليون ، والكتلة الشرقية يقودها اناس يقضون على الكنيسة الروسية الكبرى . ومن هنا يتميز موقف الكنيسة الرومانية وتحرص على بقاء اتباعها من أمم العالم على حدة في الشئون الروحية ، ومن هنا أيضا تظهر في أمريكا الجنوبية وفي أوروبا الوسطى وأوروبا الغربية برامج في السياسة لاتنضوى كل الانضواء الى الكتلتين ولا تنفصل عنهما كل الانفصال

ومجموعة الامم الاسلامية مقصودة ، ولا بد أن تقصد ، بخطة واحدة في بعض الاحوال

فاذا غفلت عن هذا الامر الواقع أصابها ما يصيب كل غافل عن الامر الواقع ، ولكنها لاتتنبه له بداهة لتجتمع على عدوان في الاستغلال أو على عدوان في التبشير ، وانما تتنبه له لتدفع العدوان من هذه الجوانب كافة ، وتجعل لها صوتاً مسموعاً في كل سياسة تصاب بها على سوء النية أو حسنها ، وتربأ بنفسها أن تكون بحيث كانت تيم في رأى الشاعر :

ويقضى الامر حين تغيب تيم ولا يستأرون وهم شهود ومتى استطاعت هذه المجموعة العالمية أن تسهم في امانة « الانسانية » وأن تعطيها من عندها ولا تعيش عالة عليها ، وأن تؤدى رسالتها للحضارة والسلام وأن تفرض وجودها على من يهملونها ولا يحسبون حسابها فذلك حق الاسلام منها ، وحقها هي من الاسلام

وامامها على الدوام « ايمان على هدى وبصيرة » ولا خذلان لمن يقتدى بهذا الامام !!

الفهرس

صفحة

٧	مقدمة
١١	قوة غالبية وقوة صامدة
٢٩	عقيدة شاملة
٤١	الاسلام والمسلمون في القرن التاسع عشر
٩٧	الدعوات ونهضات الاصلاح
١١٧	المصلحون المعلمون
١٣١	المهديون
١٤٩	الدعوات ونهضات الاصلاح في منتصف القرن العشرين

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هي سلسلة ثقافية كبيرة قامت بلشرها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع . . ففي الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب في الشرق والغرب ، في اخراج أنيق وطباعة متقنة ثمن الكتاب الواحد ١٠٠ ملليم بخلاف مصاريف البريد المسجل وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

- | | |
|---|--|
| ١٠ - الزعيم أحمد عرابي (نقد)
تأليف عبد الرحمن الراعي | ١ - عبقرية محمد (نقد)
تأليف عباس محمود العقاد |
| ١١ - بطل كربلاء (نقد)
تأليف الدكتور بنت الشاطيء | ٢ - ماجلان قاهر البحار
تأليف ستيفان زفايج |
| ١٢ - أشعب أمير الطفيليين (نقد)
تأليف توفيق الحكيم | ٣ - هرون الرشيد (نقد)
تأليف المرحوم الدكتور أحمد أمين |
| ١٣ - نفرتيتي ربة الجمال والتاج
تأليف صوفي عبد الله | ٤ - أبو الشهداء (نقد)
تأليف عباس محمود العقاد |
| ١٤ - حديث رمضان (نقد)
تأليف الامام محمد مصطفى المراغي | ٥ - جنكيز خان
سفاح الشعوب (نقد) |
| ١٥ - عبقرية خالد (نقد)
تأليف عباس محمود العقاد | تأليف ف . بان |
| ١٦ - الفتنب الأكبر مصطفى كمال
تأليف السكاكيتن ه . س .
ارمسترونج | ٦ - قلب النسر
تأليف أوتكاف أوبري |
| ١٧ - كليوباترة في خان الخليلي
تأليف محمود تيمور | ٧ - السيد عمر مكرم
تأليف محمد فريد أبو حديد |
| ١٨ - الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز
جاويش | ٨ - فاندي : القديس الثائر
تأليف لويس فيشر |
| | ٩ - زعيم الثورة سعد زقلول
تأليف عباس محمود العقاد |

- ١٩ - لا تخف (نقد)
تأليف انوار سبنسر كولز
- ٢٠ - مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية (نقد)
تأليف عبد الرحمن الرافعي
- ٢١ - القائد الاعظم محمد علي جناح
تأليف عباس محمود العقاد
- ٢٢ - زيب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل (نقد)
- ٢٣ - مذكرات مرابي (الجزء الاول) (نقد)
تأليف الزعيم احمد مرابي
- ٢٤ - مذكرات مرابي (جزء ثان)
تأليف الزعيم احمد مرابي
- ٢٥ - عمقيرة عمر (نقد)
تأليف عباس محمود العقاد
- ٢٦ - آمنة بنت وهب (نقد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطيء
- ٢٧ - فاطمة الزهراء والفاطميون (نقد)
تأليف عباس محمود العقاد
- ٢٨ - عصا الحكيم في الدنيا والاخرة
تأليف توفيق الحكيم
- ٢٩ - ابو نواس
تأليف عبد الرحمن صدقي
- ٣٠ - الرؤساء (نقد)
تأليف فيكتور هيجو
- ٣١ - علمتني الحياة (نقد)
نسخة من علماء الشرق والغرب
- ٣٢ - في الطريق
تأليف ابراهيم عبد القادر المازني
- ٣٣ - مدرسة الفقهاء (نقد)
تأليف توفيق الحكيم
- ٣٤ - لا تقتل نفسك
تأليف بيتر شتاينكروون
- ٣٥ - عصاميون من الشرق والغرب
نسخة من كبار الكتاب (نقد)
- ٣٦ - الارواح المتردة - الاجنحة المتكسرة - الموسيقى
تأليف جبران خليل جبران
- ٣٧ - ذو النورين عثمان بن عفان (نقد)
تأليف عباس محمود العقاد
- ٣٨ - محمد الثاني الاعظم
تأليف فتحي رضوان
- ٣٩ - عش مائة عام
تأليف جابلورد هاوزر
- ٤٠ - الحرية الصحراء
تأليف حبيب جمالي
- ٤١ - اهل الكهف
تأليف توفيق الحكيم
- ٤٢ - الله (نقد)
تأليف عباس محمود العقاد
- ٤٣ - عش شابا طول حياتك
تأليف فيكتور بوجومولتز
- ٤٤ - علم الفراسة الحديث
تأليف جرجي زيدان
- ٤٥ - نساء النبي (نقد)
تأليف الدكتورة بنت الشاطيء
- ٤٦ - لقرون
تأليف محمود تيمور
- ٤٧ - زهرة العمر
تأليف توفيق الحكيم
- ٤٨ - هذا ملهني
بأفلام نخبة من الشرق والغرب
- ٤٩ - قادة النيل
تأليف اميل لودفيج
- ٥٠ - مطلع النور
تأليف عباس محمود العقاد
- ٥١ - يوميات نائب في الارياف
تأليف توفيق الحكيم

- ٥٢ - طريق السعادة
تأليف فيكتور بوشيه
- ٥٣ - ألف ليلة وليلة
(الجزء الاول) (نقد)
- ٥٤ - عبقرية الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
- ٥٥ - ألف ليلة وليلة
(الجزء الثانى)
- ٥٦ - مدرسة الشيطان
تأليف توفيق الحكيم
- ٥٧ - ألف ليلة وليلة
(الجزء الثالث)
- ٥٨ - معاوية بن أبى سفيان
تأليف عباس محمود العقاد
- ٥٩ - ألف ليلة وليلة
(الجزء الرابع)
- ٦٠ - اعرف نفسك (نقد)
تأليف ادوارد سبنسر كولز
- ٦١ - ألف ليلة وليلة
(الجزء الخامس)
- ٦٢ - مع الله .. فى السماء (نقد)
تأليف الدكتور احمد زكى
- ٦٣ - ألف ليلة وليلة
(الجزء السادس)
- ٦٤ - قصة الثورة كاملة (نقد)
تأليف أنور السادات
- ٦٥ - جحا الضاحك المضحك
تأليف عباس محمود العقاد
- ٦٦ - بنات النوى
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء
- ٦٧ - عبقرية الامام على (نقد)
تأليف عباس محمود العقاد
- ٦٨ - شاعرة الطبيعة : عائشة تيمور
تأليف الانسة مى
- ٦٩ - الصديقة بنت الصديق
تأليف عباس محمود العقاد
- ٧٠ - بطل الكفاح : الشهيد محمد فريد
(نقد)
تأليف عبد الرحمن الرافى
- ٧١ - قال الرئيس
الرئيس جمال عبد الناصر
- ٧٢ - بنات النهضة العربية
تأليف جرجى زيدان
- ٧٣ - محمد الرسول البشر (نقد)
تأليف توفيق الحكيم
- ٧٤ - القصر المسحور
تأليف طه حسين - توفيق الحكيم
- ٧٥ - قصة الثورة كاملة (نقد)
تأليف أنور السادات
- ٧٦ - أسرار الثورة المصرية
تأليف أنور السادات
- ٧٧ - عصافير من الشرق
تأليف توفيق الحكيم
- ٧٨ - البؤساء (طبعة جديدة)
تأليف فيكتور هيغو
ترتيب محمد حافظ ابراهيم
- ٧٩ - أخلاق للبيع
تأليف فتحى رضوان
- ٨٠ - لا شيوعية ولا استعمار
تأليف عباس محمود العقاد
- ٨١ - قصة الوحدة العربية (نقد)
تأليف أنور السادات
- ٨٢ - حياة المسيح
تأليف عباس محمود العقاد
- ٨٣ - الفكاكة فى مصر
تأليف الدكتور شوقي ضيف
- ٨٤ - عش سليمة بفقر مرض
تأليف الدكتور ابراهيم فهميم
- ٨٥ - شهر رمضان
بقلم خليل طاهر
- ٨٦ - سارة
بقلم عباس محمود العقاد

- ٨٧ - صلاح الدين لاوي
تأليف محمد فريد أبو حديد
- ٨٨ - يا ولدي .. هذا عمك جمال
بقلم أنور السادات
- ٨٩ - بلبيس
بقلم عباس محمود العقاد
- ٩٠ - جبران خليل جبران
بقلم ميخائيل نعيمة
- ٩١ - روائع شكسبير (الجزء الأول)
تلخيص شارل ومارى لام
- ٩٢ - سكينه بنت الحسين
بقلم الدكتور بنت الشاطيء
- ٩٣ - روائع شكسبير (الجزء الثانى)
تلخيص شارل ومارى لام
- ٩٤ - روائع شكسبير (الجزء الثالث)
تلخيص شارل ومارى لام
- ٩٥ - آخر الطريق
بقلم امينة السعيد
- ٩٦ - دروس من القرآن الكريم
للاستاذ الامام محمد عبده
- ٩٧ - حديث عيسى بن هشام
(الجزء الاول)
بقلم محمد المولى
- ٩٨ - حديث عيسى بن هشام
(الجزء الثانى)
بقلم محمد المولى
- ٩٩ - مذكرات نجيب الريحاني
بقلم نجيب الريحاني
- ١٠٠ - ليالى سطحي
تأليف حافظ ابراهيم
- ١٠١ - اعترافات شبابى
بقلم ليوتولستوى
- ١٠٢ - عجائب واسطوخ
تأليف الدكتور شوقي ضيف
- ١٠٣ - المرأة في القرآن الكريم
تأليف عباس محمود العقاد
- ١٠٤ - الملك والشوار فى عربة
تأليف فتحى رضوان
- ١٠٥ - الدكتور زيفاجو (الجزء الاول)
تأليف بوريس باسترناك
- ١٠٦ - الدكتور زيفاجو (الجزء الثانى)
تأليف بوريس باسترناك
- ١٠٧ - مذكرات محكوم عليه بالاعدام
بقلم فيكتور هيغو
ترجمة لطفى سلطان

وبممكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم
الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب « المتديان » بالقاهرة
ومن جميع المكتبات الشهيرة ، واكتساب الصحف ، ما عدا الكتب التى نفذت
نسخها كما ترى فى هذه السلسلة

وكلاء مجلات دار الهلال

- لبنان :** وكالة دار الهلال - شارع فرنسا
والاقليم الشامي : صندوق البريد ٣١٥٧ - بيروت
- العراق :** السيد محمود حلمي - المكتبة العصرية
 ببغداد
- اللاذقية :** السيد نخلة سكاف
- جدة :** السيد هاشم بن علي نحاس - ص . ب ٤٩٣
- البحرين :** السيد مؤيد احمد المؤيد - ص . ب - ٢١
- البرازيل :** Dr. Michel H. Tomé,
 Paeto Do Colegio No. 3
 3º Andar - Sala 9
 SAO PAULO - BRASIL
- غانا :** Mr Joseph Hassan,
 The Cine Travel Co.,
 P.O. Box 1883,
 ACCRA, GHANA
- نيجيريا :** Mr Mohammed Said Mansour,
 P.O. Box 652,
 LAGOS, NIGERIA
- سيراليون :** Messrs. Allie Mustapha & Sons,
 P.O. Box 410,
 Freetown Sierra Leone
- سنغافورة :** Mr. Ahmed Bin Mohamad Bin Samit
 Almaktab Attijari Asehargi,
 P.O. Box 2205,
 SINGAPORE

هذا الكتاب

كتاب ضخيم ، لا في حجمه ، بل في مبناه
وفيما اشتمل عليه من بحوث هامة رائعة عن
الاسلام ، وعن قوته الغالبة منذ بداية عهده
وعن قوته الصامدة حين ضعفت أممه بعد ذلك
بعده قرون ، وكيف انتشرت هذه العقيدة
الشاملة شرقا وغربا ، وكيف غزت مختلف
الاقطار ، وكيف اعتنقها الملايين . انه كتاب
نفيس يتحدثنا عن الاسلام والمسلمين . في
مختلف الاجيال ، وفي متباين الاقطار والامصار
ثم ينتهي بالقارئ الى الحديث عن الاسلام في
القرن العشرين

والاستاذ الكبير عباس محمود العقاد ،
مؤلف هذا الكتاب ، هو بلا مرأى خير من يعالج
مثل هذا الموضوع ، فقد عهدناه وعهده القراء
في بحوثه العديدة باحثا مدققا ، لا يغفل ناحية
من نواحي البحث الذي يعالجه ، وهو حين
يتحدثنا عن الاسلام انما يتحدث حديث الملم
بجميع اطراف الموضوع ، ولهذا كان كتابه
تحفة رائعة يهم كل مؤرخ وكل مسلم . وانه
ليس سلسلة كتاب الهلال ان تقدمه للقراء في
مستهل شهر رمضان المبارك .

